حيدر حيدر

حقل أرجوان

رواية



* حيدر حيدر
* حقل أرجوان
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الثالثة 2000
* صدر هذا المؤلَّف ضمن مجموعة «التموجات»
بموافقة اتحاد الكتّاب العرب تاريخ 1985/4/10
* الناشـــــــــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحـــــة الغـلاف: د. أحمد معلاّ
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيـع
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053

حيدر حيدر

حقل أرجوان

روايـــة

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعِها إلى الصلح، فإن أجابتك وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود يكون لك للتسخير ويُستعبَدُ لك. وإن تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصِرْها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضربْ جميع ذكورها بحدّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة، كلّ غنائمها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستَبْقِ منها نسمة ما، بل تحرّمها تحريماً (أي إفناء) كما أمرك الرب إلهك».

«سفر التثنية/ الإصحاح العشرون»

الفصل الأول

زمان الذاكرة

1

ليس في الأمر ما هو خارق. زمن المعجزات مضى، كذلك زمن الناس المحايدين. لقد أقبل الزمن الفلسطيني الملون بالدماء والحرائق والشقاء.

أروي هذه الوقائع بعد سبع سنوات ونصف من السجن، وبعد ثلاثين عاماً من شتات الشعب في تيه الأرض، والحصادُ ذِراع مقطوعة وبطن مثقوب ينزف صديداً ودماً، ورصاصة ماتزال في العمود الفقري.

تبدو حكايتي بسيطة وعادية في زمننا. حتى الخارق والاستثنائي والمعجز، صار في حياة شعبنا مألوفاً ألفة شروق الشمس وغروبها.

في قرية «عينا بوس» شاهدت النور. وفي حيفا، فيما بعد، شاهدت الظلام والنار. أبي فلاح يملك ارضاً صغيرة في القرية. كان يزرعها خضاراً وحول الأرض تقوم ست شجرات زيتون وشجرتا تين ودالية وثلاث شجرات رمّان. محصول الأرض لم يكن يكفي العائلة التي تكاثرت مع الزمن تكاثر الأرانب حتى صار عددها تسعة، لذا هاجر والدي إلى حيفا ليعمل سائق سكة حديد لدى الإنكليز.

حدث ذلك في أواخر العام 1935.

لم نهجر بيتنا في قضاء نابلس. في الأصياف كنا نعود إليه. بيت أبيض من الحجر الصلب مسقوف بالجذوع والشوك والغضار

الرمادي. أمي وأبي بنياه من حجارة وشجر الطبيعة فوق تلة مطوقة بالغابات وكروم الزيتون. بعد أن تنتهي إجازة والدي يتركنا في عينا بوس ويعود إلى حيفا. في أواخر الخريف بعد أن تجني الأسرة خيرات الأرض وزيت الزيتون، نحمل المؤونة ونذهب إلى بيتنا في حيفا.

لاأذكر الكثير من أحداث طفولتي الأولى. الطفل الثالث بين أربعة ذكور وخمس بنات يكاد لايتمايز ولايُستثنى. إنه يشبه شجرة في بستان كثيف أو موجة في بحر.

البيت الحيفاوي كان واسعاً وجميلاً. حديقته مغطاة بالورود وأشجار البرتقال والرمان، على مسافة منه البحر ومن الشرق جبال الكرمل الخضراء. يروي أبي عني بعد أن كبرت أنني كنت طفلاً يحب الأمور العملية. يشتري لي ألعاباً فأفككها في اليوم الأول ثم أحاول تركيبها من جديد. كان يسميني «الميكانيكي الصغير»، ويقول أيضاً بأنني كنت أنانياً، أكره البنات وأضرب أخواتي بقسوة.

في السهرات بين أعمامي والجيران يتهكم على خيباتي في الصيد، وكيف كنت أشتري العصافير من الصيادين أو أعود ومعي حشائش من الزعتر والجرجير والتين بدلاً من الطيور.

أمي كانت تقدم صورة أكثر إثارة للسهارى والأقارب: نافذ ولد غريب الأطوار لكنه من سلالة الكولونيل محمد. لم يشترك في شجار مع أولاد الحارة إلا وكان المنتصر. فيه الكثير من خاله. صحيح أنه غير أليف على ما يبدو في وجهه، لكنه من الداخل صافٍ كالنبع ومستقيم مثل حدّ السيف، لايكذب ولايسرق.

كانت أمي تصرعنا بسيرة أخيها الملازم محمد والتي رفّعته إلى رتبة كولونيل يقاتل في جيش رومل، ويحقق للألمان كل انتصاراتهم على الانكليز في العلمين وليبيا وشرق السويس.

كنت أستمع قبل النوم إلى هذه الحكايات، وإلى روايات أمي عن

خالي والمعارك الوهمية التي يخوضها، وما كنت لأسأل إن كانت هذه القصص حقيقية أم من خيال أمي. كانت ترسو في أعماقي. ومع الزمن رسمت في رأسي صورة أسطورية عن خالي: البطل المحارب الذي لايُقهر.

البلاد وما يجري فيها كانت تؤرق الناس. فلسطين تحت النار: نار الإنكليز ونار اليهود. أبي الموظف عند الإنكليز كان يكره السياسة ويحايد عنها. لقمة العيش لتسعة أفواه وضعت الرجل على هامش الحرائق. يستيقظ مع الفجر ليقود قطاره وفي أواخر الليل يعود منهكاً. رجل متدين يصوم ويصلي ويدعو الله كي يحفظ الأسرة من الشر والفساد والجوع. وعلى النقيض منه كانت أمي. امرأة قوية معتدّة بأخيها الذي يقاتل عنّا ويفضح حياد أبي. عواطفها مع الألمان والمفتي. إنها تحكي بصوت عالٍ عن جرائم الانتداب الإنكليزي وانحيازه مع اليهود. تتحدث عن بربرية جيش الاحتلال في صفد، وكيف أن الجنود البريطانيين لم يتركوا باباً ولا شباكاً إلا وكسروه بعد مظاهرات الأهالي. وكيف أغاروا على البيوت فأتلفوا الأمتعة والأواني والأثاث. خلطوا المؤن ببعضها البعض وألقوها على الأرض، وسكبوا الزيت فوق الحنطة، والسمن فوق الحبوب والطحين والبترول، وكيف حطموا المتاجر ومحتوياتها، وألقوا المواد السامة في آبار الشرب، ثم أحرقوا عدداً من البيوت، وسلبوا النقود ومصاغ السيدات، وداسوا القرآن بأرجلهم. لقد أعدموا الشيخ فرحان السعدي وهو ابن ثمانين عاماً لأنه يحتاز بندقية قديمة كانت معلقة على جدار غرفته. أعدموه في شهر رمضان استفزازاً للمسلمين وتحدّياً لهم. وإثر ذلك استُفز المئات من الأهالي الشباب والتحقوا بقوات الأنصار المقاتلة في الجبال.

كان الأب يتأفف من هذه الحوادث: ما لنا ومال السياسة ياامرأة. العائلة أهمّ من السياسة. نريد أن نعيش بسلام ونأكل خبزنا بهدوء. الشيخ القسّام طلع إلى الجبل وأعلن الجهاد واستشهد ـ الله

يرحمه ـ بدون نتيجة. هل نحن أقوى من القسام؟ وتردّ أمي بعنف المرأة التي تستبطن رجلاً: يلعن أبو اللقمة المغمسة بالذل. أي والله. والله، إذا أخذ اليهود فلسطين ستكون حياة الكلاب أفضل من حياتنا.

ويجيب أبي: عندنا بيتنا في عينا بوس. وترد: هؤلاء اليهود سيأخذون كل شيء وإنكليزك أصل المصائب. يا رب ترجع الكولونيل محمد حتى يلعن أبو الإنكليز واليهود مع بعضهم البعض. يصمت أبي على مضض. ينهض إلى صلاة ما قبل النوم، ثم يستلقي في فراشه ويدخن سيجارة وهو يهجس: إذا عاد ذلك الكولونيل ـ الشبح فسيأتي الخراب على يديه.

2

يوم أصيب في وادي النسناس وجاءنا الخبر، صرخت أمي: آخ يا ويلي. انكسر ظهرنا. وتحت نيران القناصة جرت وهي حامل في شهرها السابع. كانت تهرول وهي تعول وتصيح رافعة قبضتيها نحو السماء: انكسفت شمس فلسطين. راح الغالي راح. وين الرجال وينها! آه. يا ذلّنا من بعدك.

صرخوا بها أن تعود لأن الوادي مطوّق، والجريح الذي سقط صار فخّاً لكل من يقترب منه. لم تبال ولم تسمع. كانت تندفع بجسدها الضخم كإوزة يطاردها الموت، وهي تزغرد صاعدة سفح الكرمل المشجر. أنا وأخي ياسين تبعناها ونحن نبكي.

قبل أن تصل إليه بثلاثين متراً، قطعت رِجلَها شظيةُ قنبلة. زحفت وهي مخضبة بالدم وعانقته. كان مايزال حياً وجرحُ صدره ينزف.

ما أتذكره جيداً هو مستشفى حيفا. خالي مصاب بطلقة في صدره وأمي مقطوعة الرجل. رجال يدخلون ويخرجون،وممرضات يتحركن بسرعة في ردهات المستشفى يحملن الضمادات والمصل. كان عمري آنذاك ثلاثة عشر عاماً، وكنت أجلس على حافة السرير قرب الكولونيل الأسمر المثقوب الصدر. أبي وأعمامي وأخوتي ينتقلون بين غرفة أمي وغرفة خالي الذي مايزال بكامل وعيه، وحوله جماعة من فدائيي دفاع فلسطين الذين درّبهم بعد هربه من

الجيش الألماني، لكنه كان يتنفس بصعوبة وهو مستند إلى قاعدة السرير الخلفية. حين حضر الصحافيون ليسألوا قائد حرب عصابات الجبل عن الثورة التي انتهت بنهايته. قال الطبيب معترضاً: الجريح متعب ولايحتمل الأسئلة.

كان مدركاً بأنه سيموت، هذا الفراغ في صدره كان يحسّه كأنه فراغ الهاوية. بين حين وآخر كان يطلب ماء ولكن الممرضة كانت تكتفي بمسح شفتيه الجافتين بخرقة مبللة. كان الماء يساوي الموت لجريح ثقب الرصاص رئته اليسرى وكبده. ورغم ذلك أصرّ بعناد على مقابلة الصحافيين.

عندما سأله صحافي إنكليزي إن كان يعتقد بأن هذا النمط من العمل الفدائي يحرّر فلسطين، نهض قليلاً. ساعده في ذلك أحد المجاهدين. كان في عينيه بريق النمر، لكن صوته وحركته كانا واهيين. لقد تحدث بصعوبة عن فلسطين أرض الأنبياء والشهداء. الأرض التي لم يتوقف الصراع فيها يوماً إلا ليبدأ من جديد من زمن يوشع بن نون حتى عز الدين القسّام. وتنهد فأحس بالإجهاد: كانت المعارك سجالاً بين اليهود والعرب. قد لانحررها نحن الآن لكنها لن تكون لليهود أو للإنكليز إلى الأبد. الفدائية والجهاد هي النار والمهم أن تظل هذه النار مشتعلة. كان يتنفس من ثقب الجرح: المهم أن تتابع الأجيال الخطوات التي خطوناها. نحن تابعنا ثورات الـ 17 والـ 36 والأجيال القادمة تعرف درب الدم لأنها نَمَتْ على هذه الطريق.

وسأله الصحافي: من أين يأتيك هذا اليقين مادامت كل ثوراتكم قد انتهت إلى الفشل؟

قال وهو يشير إلى صدره: من جرحي. نحن قوم نحب الموت لأننا نؤمن بالجنة. الشهيد عند المسلمين يذهب إلى جنة الخلد. هذا أولاً.

وعلى نمر فاجأني فيه مدّ كفه العريضة المرتعشة ورفعها

على كتفي، ثم نظر بعمق واعتداد فتلاقت عيوننا: ثانياً. انظر إلى هذا الشبل. هؤلاء لن ينسوا. نحن العرب عندنا مثل يقول: البدوي يأخذ بثأره ولو بعد أربعين عاماً. ومع ذلك هذا البدوي مستعد لذبح ابنه ليطعم ضيفه الشهم. أما من يرفع السيف في وجهنا فليس له إلا السيف. واستطرد بحشرجة: سأقول لك شيئاً خاصاً أنا أعتقده. أتعلم ما هو؟ نحن العرب ننجب كثيراً وأنتم تعتقدون أن ذلك بدافع الشهوة. أبداً. نحن ننجب كثيراً لأننا نموت كثيراً. كان واضحاً أنه يرى الآن أشباح الموت وراء أمواج عينيه اللتين راحتا تجولان في وجوه الناس المحيطين به: الموت يهددنا ويطوقنا. ينبغي أن تكون العائلة كبيرة حتى لاينقرض النسل. وضغط على كتفي وهو يحشرج: أين فدائيي الدفاع. آه. يا أخوتي. يا أخوتي... مدّوا أذرعهم فسقط رأسه بين أيديهم.

وصرخنا...

لكنه كان قد مات. وارتفع التكبير بأصوات راعدة وجريحة اختلطت مع إجهاشات النحيب في ردهات المشفى وممراته.

بعد أسبوعين خرجت أمي من المشفى وهي تدق الأرض بعكازها. المرأة ـ اللبؤة والتي كانت شخصيتها تطغى على شخصية أبي، والتي تزن أكثر من تسعين كيلوغراماً. المرأة التي كانت ناهضة كالهضبة، تنكسر الآن فوق عكازها فتبدو كشجرة ناحلة جذعها ينحني نحو الأرض. لقد انكسر ظهرها كما قالت بعد سماع خبر إصابة أخيها؛ وربما ما كانت بحاجة إلى هذه الساق الاصطناعية لتهوي. لقد أصابها موت كولونيلها في مجرى دفق الدم عبر الأعصاب، فانهدمت. حزن والدي وأسف، لكنه في أعماقه شعر بالراحة لأن سطوة اللبؤة والتي كان يسميها الفرعونة، قد همدت. كان أخوها جدارَها، وكانت تتوهم بأنه سيقود شعب فلسطين بعد استشهاد القسام ليدحر بهذا الشعب اليهودَ والإنكليز.

وعندما كان أبي يراوغ في مواقفه مبشراً بالسلام العام والمحبة والحياة اليومية لاعناً السياسة أمّ المشاكل والمصائب، كانت تلك الأم تنهره وتتهمه باللاوطنية.

الآن سقط الجدار، وعادت أمي قعيدة تمضي معظم وقتها ساهمة في فراشها، وفي أواخر الليالي تغني وتبكي بهدوء حزين.

على مدى أسبوعين والعائلة تقوم بخدمتها والعناية بها. حتى والدي الذي كانت تناكده وتشاحنه فيهرب منها إلى المقهى أو السهرات العامة، لازمها وخفّف من مصابها.

أنا وهي كنا ننام معاً. تعتقد في أعماقها بأنني وريث خالي. بعد أن هدأت حالتها النفسية وبدأت تعود إلى طبيعتها، كانت تروي لي في الأماسي كيف نظّم الكولونيل محمد ودرّب الفدائيين على صناعة المتفجرات ورمي القنابل، كما روت لي بطولاته في جيش رومل وجبال الكرمل بعد هربه، وأنه بعد أن احتل موقع «حسبة الهَدار» في حيفا مع مجموعة فدائيي الدفاع، طوقه الجيش الإنكليزي بقوة كبيرة من المصفحات فاضطر للانسحاب إلى وادي النسناس، وهناك ظل يقاتل كالنمر من صخرة إلى صخرة ومن شجرة إلى شجرة إلى أن أصيب بطلقة قناص.

سألتني عن لحظاته الأخيرة في المشفى فرويتها لها، وقلت بأنه وضع يده على كتفي وضغط وتلاقت عيوننا، فبكيتُ، وقلت له لاتمتْ يا خالي فنحن لانريدك أن تموت؛ ثم حكيت لها بأن فدائيي الدفاع أقسموا بالدم وهم يبكون ألا ينسوا ما تعلموه منه.

3

مع اقتراب الأربعين يوماً على موت خالي قالت أمي: جهّز نفسك للذهاب إلى المقبرة. ستذهب إلى سفوح الكرمل وتأتي بالريحان الأخضر ثم تشتري من السوق البخور لقبر خالك المرحوم.

كانت قد بدأت تتحرك وتخرج من البيت إلى الحديقة وبيوت الجيران. وكان واضحاً أنها ابتدأت تسترد روحها القوية، متجاوزة ما أمكن الصدمة القاتلة التي هشمت عنفوانها ومثلها الأعلى.

غير أن الانكسار الداخلي كان يبدو من خلال تنهداتها، وضربات عصاها التي تدق الأرض بإيقاع يتراوح بين الهدوء الرتيب والعصبية المباغتة.

كانت ماتزال متينة البنيان، وناضرة. تلوح في عيني جميلة وشامخة كنجمة تتلألأ، رغم الإصابة التي ضربت عقلها وجسمها. كانت غبطتي بلا حدود وأنا أراها تغادر فراشها وتتموج بيننا ثم وهي تجهز نفسها لزيارة قبر خالي في ذكرى يوم الأربعين.

قبل يوم الزيارة ذهبت مع ابن عمي إلى سفح الكرمل القريب؛ قطعنا حزمة كبيرة من أغصان الريحان وخلال العودة اشتريت أوقية بخور أبيض.

مع الفجر كنا نتوجه إلى المقبرة. وإذ سألتها عن أخوتي قالت بأنهم سيتبعوننا مع شروق الشمس. كانت تتكئ علي وعلى عصاها،

والمدينة لم تستيقظ بعد إلا من باعة الحليب وعربات الخضار المتجهة إلى السوق عبر شارع الحنطور المحاذي للبحر.

تحت رطوبة الصباح الهابطة على المدينة والبحر وغابات الكرمل، راحت تحدثني حديثاً غريباً عن شجر الريحان والآس وأرواح الموتى ومعنى زيارة القبور في هذه الأوقات المبكرة.

حكت لي عن رائحة الريحان والآس التي تنعش روح الشهيد فتستيقظ من نومها وتخرج لترفرف فوق القبر، وسألتها عن مخدع الروح الذي تنام فيه، فقالت بعد أن تعود من حساب العقاب والثواب تنام في التراب قرب الميت لتؤانسه ثم تروي له ماحدث معها في حضرة الملائكة، وعندما يشعر بالحزن والملل تخرج به إلى الفضاء والريح تنزهه ثم تعود به إلى القبر، وفي مواسم الأعياد والزيارات تتنشق له رائحة الريحان والزهور وتنثرها فوقه ليظل منتعشاً.

وهي تروي لي هذه الأساطير كنت أتخيل أن الموتى لايموتون. فقط ينامون نوماً طويلاً في أماكن بعيدة عنّا تحت الأرض.

حين سألتها عما إذا كان جميع الموتى يصعدون إلى السماء، قالت بثقة: لا. الشهداء وحدهم يا ابني، إنهم أحياء أبداً في الجنة وقد فضلهم الله على العالمين جميعاً، الأحياء والأموات.

ما كنت أحب رائحة الريحان، وأنا أحمله أشعر برائحة الموت. إنه يضمخني بعبق كئيب لكأنني ميت وأنا أسير. حتى وأنا أقطعه من غياضه في الكرمل كان يخيل إلي أنه ينمو ويعيش على أضرحة القبور. يذكرني بالموتى وغسلهم ورائحة البخور والصلوات والجنائز.

كنت أتصوّر أن سفوح جبال الكرمل كلها قبور ومدافن من عصور قديمة جرّاء كثافة ونمو الريحان؛ وانطلقت أمي تتحدث عن أرضنا وبلادنا التي غطتها الدماء من زمن داوود وجوليات حتى الصليبيين.

وعلى غير انتظار روت شيئاً مدهشاً وغامضاً عن رحلة الروح التي عبرت من جسد جوليات إلى القسام وعبد القادر الحسيني ثم تقمّصت الكولونيل محمد.

يبدو أن الحياة والموت يتساويان في رأسها؛ فهي لاتريد التصديق بأن أخاها، الذي تماثل في تفكيرها مع الإله الحي، قد تحول إلى تراب بعد موته. من أجل ذلك استفاضت، ونحن نستريح قبل وصولنا إلى المقبرة، في الحديث عن الروح القلقة التي لاتهدأ. الروح التي تتقمص جسم بومة لاتني تنعب فوق الضريح منذ الغروب حتى شروق الشمس، والتي سنراها فوق الصندوق الحجري لقبر خالي.

إذ دخلنا بوابة المقبرة نبهتني أن أقرأ الفاتحة ثم سمّت باسم الرحمن، وقرأت الفاتحة فطارت بومة عن حافة أحد القبور، ووقفت على الهلال النحاسي لرأس قبة أحد الأولياء وراحت تنعب. قالت أمي بعد أن انتهيت من قراءة الفاتحة: أرأيتها! انظر إلى ريشها الرمادي والأحمر. الرمادي يشير للموت والأحمر للدم. تلك هي بومة الثأر. إنها توقظهم ليلاً بنعيبها حتى لاينسوا الدماء. دماءهم المغدورة.

بغتة وضعت يدها على عضدي: تلك هي روح محمد التي ستدخل فيك يوماً!

قالت ذلك ونحن نحاذي القبر الأبيض. مسحت الضريح وقبلته، ثم ندهت بي أن أجمع الحطب لإشعال النار للبخور بينما باشرت بغرس أغصان الريحان حول القبر.

اتّقدت النار. قالت: ابحث عن المجمرة وضعِ الجمرات فيها.

كانت تطوق الضريح بشجر الريحان وهي جاثية على ركبة واحدة والساق الأخرى المصابة ممددة على التراب. وأنا منهك بإيقاد الجمرات سمعتها تناجيه وتعاتبه على موته وعدم احتراسه أثناء القتال لكأنه حي الآن ويسمعها. ناولتها المجمرة فأخذت حفنه

بخور وذرّتها فوق الجمرات ففاحت الروائح وانعقد الدخان في الفضاء. قالت أمي: هذه الروائح تنعش الروح فتقوم، وإذا كانت في السماء تهبط على أجنحة الروائح. ثم مدت يدها نحوي وقالت: تعال قبِّلْ هذا القبر واقسمْ أمامه أنك ستكمل طريقه وتحمل بندقيته التي خبأتها لك في الحديقة. تعال. هيّا.

جثوت أمام الضريح وبدأت أردد بارتعاش كلمات القسم التي انطلقت من فمها كآيات.

بدأت أتمتم وراءها ببلاهة فتى مرتبك أمام هذا المشهد. كنت خائفاً أرتعد في أعماقي من برودة الفجر التي اختلطت مع حكايات وهذيانات أمي عن الموت والثأر والبومة والروح الهائمة. وإذ ابتدأت صلواتها وأدعيتها اجتاحت بدني موجة من الرعشات. كانت تمسّد حجارة القبر وتمسح وجهها به، وهي تبارك الروح التقية التي ذهبت إلى السماء طاهرة ومقدسة، ثم عادت إلى الجسد لتخبره بأن الله راضٍ عنه. ثم قرأت آية «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً.....» وبعد أن أكملت الآية همست له: كان لك يا حبيبي أسوة بشهداء بدر والخندق وأصحاب رسول الله الذين قضوا في سبيل الإسلام. بدأت تهتاج وازدادت حركاتها عصبية فَعلا نواحها وندبها. بدت واقعة تحت سطوة أحاسيس غريبة ونوبات فككت على ما يبدو توازنها العقلي؛ وتحت تأثير هذه الحالة الهذيانية راحت تصيح بصوت عال: آه. آه. يا محمد يا زينة شباب فلسطين. نحن لن ننساك يا حبيبي. الدم لايصير ماء. ثوبك الدامي وبارودتك عندي. خبيتها للشبل اللي راح يوخذ بتارك. دمك معلق في رقبتنا يا غالي. معلق على الأشجار وعلى الأحجار وعلى جناح الطير الطاير فوق البلاد. آه. يا حسرة قلبي عليك يا غالي يا نسر الجبال ويا سبع الفلا.

كانت ترش البخور على الجمرات فتوّج الروائح، وراحت الرائحة تزيد هياجها. وتحت تأثير انفعالاتها جذبتني إليها وضمتني إلى صدرها مواصلة هذيانها وأنا أرتعد بين ذراعيها:

إياك أن تنسى. دمه برقبتك. إذا نسيت لن تكون من صلبي ولا من دمي. إذا نسيت سيقع عليك غضب السماء والأرض. ستلعنك السماء وتقتلع عينيك بومة الثأر. يا نافذ كن قدّ الحمل في يوم الصعاب. إذا نسيت يا نافذ، أنت وأخوتك، استباحوا أرضنا وعرضنا إلى يوم القيامة. آخ. آخ. يا محمد صرنا يتامى بعدك. البيوت هدموها والحقول حرقوها. الأرض والسماء عم تبكي على الصبايا المتل ورد وريحان الكرمل. الصبايا اللي سبوهن اليهود واغتصبوهن...

وابتدأت تضرب الأرض بيديها: قم يا زين الرجال من قبرك. قم وشوف. آي وين الرجال؟ وين النخوة؟ وين الدم؟ الدم ينادي من قبور الشهداء. دم القسام ودم عبد القادر ودمك يا محمد. قوموا ياشهدا فلسطين. البسوا قمصان الدم وانشروا الرايات الحمرا فوق تلال فلسطين الجريحة. آخ. آخ. آخ.

أصوات ندبها التي اختزنتها خلال أربعين يوماً تجاوبت كموجات فجائعية مجنونة عبر أرجاء المقبرة. كانت الشمس قد أشرقت، وحضر أخوتي والجيران. كانت أمي قد دخلت أطواراً شبيهة بأطوار الجنون والهستيريا، وراحت تمزق ثيابها وتنتف شعرها وتمرغه بتراب المقبرة. أسرع الأهل والنسوة وطوقوها: اهدئي ياأم نافذ اهدئي. هذا حرام يا مريم. فلسطين ومحمد لايحييهما البكاء.

كنت أرتعد من خوفي وحزني. أنا وأخوتي انخرطنا في البكاء ونحن نرى أمّنا شبه عارية وممرغة بالتراب. بدأت تزغرد. هدأتها النسوة: من أجل روح الشهيد كفّي. هيا انهضي. من أجل محمد والشهدا قومي. النساء زغردن مع أمي: ويها. ويا الشهيد السامع بقبرك. ويها. ويا فلسطين الناهضة حولك. ويها. ونحنا بنات وشباب فلسطين بعدك. ويها. حلفنا بالأرض والدم والنبي المختار تاناخد بتارك...

تماوجت الزغردات من أفواه عشرات النساء القائمات حول أمي

بين قبور الشهداء. زغاريد رددتها بقوة الإعصار أوديةُ وهضابُ الكرمل فتمددت آخذة معها عاصفة الألم والشقاء، والدموع التي سالت فوق الوجوه الحزينة. فجأة نهضت أمي. استعادت قوتها وانجلى حزنها. على وجهها الذي كان ممرغاً بالدمع والتراب انعكست أشعة الشمس، فضاءَ الوجهُ وغمرته هالة من السكينة والسلام الروحي.

4

الموت.

داهمني على أبواب الحياة. وأنا مازلت غرّاً عكّر بحار أحلامي، وألقى على بصري الجامح إلى ماوراء الأفق، ظلالاً كثيفة من السواد. بعد أن تنام الأسرة أستيقظ داخل الليل. صوت البحر يأتي كطيور خائفة. الأشياء الغامضة في الخارج وصدى الانفجارات، كلها كانت ترمي في أعماقي فزعاً وهولاً لا أستطيع إدراكه.

كانوا يتحدثون عن الأحياء العربية واليهودية في بيتنا والمدرسة. الأحياء المفصولة والمغلقة والمتاريس والغارات التي تقوم بها عصابات اليهود على الأحياء العربية وغارات مجاهدي الشعب. وفي ذلك الوقت انتشرت شائعات عن نوايا الإنكليز في مغادرة البلاد وإنهاء الانتداب.

في ذلك الوقت كنت أشعر كأنني أترنح على سطح زورق في عرض البحر، في رأسي أحلام وصبوات عن السفر نحو بلاد بعيدة، ألوان وصور حول الحب واللعب والحرية والتجوّل في الشوارع والحدائق والمدن. مدن فلسطين ومدن العالم، لكن عالمي كان ضيقاً ومحدوداً بين البيت والمدرسة وأسواق حيّنا الصغير. داخل هذا العالم الضيق همدت الأحلام واستكانت. ومع تفاقم الحالة والتوتر في البلاد بدؤوا يمنعوننا من الخروج والذهاب إلى المدرسة

والأسواق. كانت المدينة تغلق مع غروب الشمس وينكفئ السكان إلى منازلهم. كنّا في قلب الرعب.

كانت منظمة الأرغون اليهودية قد بدأت حملة تفجير القنابل في مناطق التجمعات السكانية والأسواق لإبادة العرب وإرغامهم على الهجرة.

الآن أتذكر ليلة تموز الرهيبة. الليلة التي فجر فيها اليهود عشرات القنابل في حيّنا، وأدت إلى قتل وجرح أكثر من مئتي امرأة وطفل وعجوز من سكان المدينة. استيقظنا على أصوات الانفجارات في السوق والساحات وداخل المنازل الآمنة. كان الدويّ يختلط بأصوات الرعب والهلع، وكان الناس يتدافعون ويتصادمون ويسقطون، بينما كانت الشظايا تمزق وجوههم وصدورهم وأرجلهم فيهوون على الأرصفة وفوق النفايات وتحت الجدران. هناك كانوا يختلجون بدمائهم اختلاج طيور فاجأها القتل وهي نائمة. كنت في حضن أمي أرتجف من الفزع، وكان أخوتي يجرون داخل البيت ويزقون كالفئران مندفعين تحت الأسرّة والكراسي ونحو الزوايا.

صرخت الأم: لاتخافوا يا أولاد. اهدؤوا يا روحي. الله يلعن أبو الانكليز واللي جابهم على بلادنا. لولاهم اليهود كانوا مثل الكلاب. واندفعت تحجل بقدم واحدة لتلمّ أخوتي وتطوقهم شبيه دجاجة داهمت صغارها حدأة.

بدت وجوه البنات في لون الشمع. أخواي الآخران كانا يرتجفان ويتصببان عرقاً وهما يبولان في ثيابهما.

وراح رشيد البالغ من العمر عشر سنوات يرتعش ويصرخ: ماما. اليهود سيذبحوننا. لماذا لانذهب ونختبئ في البئر!

وقالت أمي: لاتخف يا حبيبي. اليهود خوّافون. يضربون ويهربون. اهدأ يا حبيبي اهدأ. كنا حولها، وبين ذراعيها، وتحت

فستانها. وقالت أختي سامية مؤكدة ما قاله رشيد: ماما. البير أكثر أماناً من هنا.

وردت أمي وهي تمسح شعر أختي وتضمها إلى صدرها: لا.لا. يا حبيبتي إذا وقعت علينا قنبلة ونحن في البئر نموت جميعاً. أنا معكم يا قلبي وهالحين يوصل أبوكم من الشغل. كنا مكوّمين في الغرفة المعاكسة لجهة الانفجارات، في الزاوية الغربية، نحتمي بالديوان والكراسي وصندوق عرس أمي الكبير. وفي غمرة الأصوات التي تأتي من الخارج والدوي والهلع الذي أصابنا جميعاً طلبت أمي أن نجمع متاع البيت من الأخشاب والكراسي والطاولات ونضعها وراء الأبواب كمتاريس، ثم زحفت من بيننا وانهمكت في اغلاق النوافذ وإحكام الأبواب وهي تردد: آه. آه. لو كان خالكم الكولونيل مازال حياً! بعد ما مات صار اليهود يذبحوننا في بيوتنا.

في الصباح حضر أبي من القدس. كان مهلوعاً ومغموماً. بعد أن اطمأن علينا حمد الله وشكره لسلامتنا. روت له أمي ماحدث. كنا حوله نعاتبه على غيابه وهو يطوقنا ويداعبنا شاعراً بوطأة الذنب والتأنيب. وقالت أمي: هذه الحالة ما عادت تطاق. اترك العمل عند هؤلاء الانكليز الكلاب. يلعن ابو هاللقمة المغمسة بالدم. أولادنا أغلى من كل مال الدنيا. تصوّر لو أنك عدت ولقيت البيت ركاماً وأطفالك موتى!

وقالت أختي الصغيرة: بابا. نحن لانريدك أن تتركنا وتسافر بعد الآن.

وقال أخي ياسين: لو كنت معنا اليهود يخافون منك ولا يذبحوننا.

هيأنا طعام الفطور وجلسنا نأكل. حضور أبي أعطانا دفقة

أمان. تحدث والدي عن الأخبار السيئة التي سمعها من الركاب في القطار. اليهود يريدون البلاد كلها وعينهم على حيفا لأنها مرفأ وهم سيهاجمون الإنكليز إذا تدخلوا لحماية العرب.

وردت أمي: الانكليز سيسلمون جميع مواقعهم لليهود قبل انسحابهم.

وقال أبي بأن البلاد تغلي وتهدد بالانفجار والناس خائفون ويفكرون بالهجرة بعد ضرب يافا وحيفا والقدس، والثوار في الجبال تشتتوا وهم محاصرون ويعانون من نقص السلاح والذخيرة بعد أن بدأت عصابات اليهود بتدمير السكك الحديدية وتفجير القطارات وأنابيب النفط.

في الليل سمعت أبي يروي لأمي بأن قطاره سيحمل بأسلحة إنكليزية لتسلِّم لليهود في منطقة العفولة تحت حماية ضابط مخابرات بريطاني متعاون مع الصهاينة، وعندما سألته ماذا سيفعل في هذه الحالة، قال: لن أقود القطار. منذ الآن سأترك العمل وأستقيل.

5

الزلزال.

كانت الأرض فوقه تترنح وتميد، مقذوفة ومتصادمة عبر الاتجاهات الأربعة، وكان الشعب قد أصيب بحالة من الدوار وضياع بوصلة الجهات.

راحت المباغتة تأتي كهزات أرضية متقطعة، قطباها: الانكليز المتواطئون، واليهود المسلحون حتى الأسنان لاجتياح فلسطين، هؤلاء المدربون على ذلك سياسياً وعسكرياً منذ نصف قرن. وفي ذلك الوقت كان العرب ضعافاً ومنقسمين وبلا سلاح. كانوا يشبهون قبائل زراعية آمنة في أرضها داهمها الغزاة من كل حدب وصوب.

تحت هذه الغمرة الجائحة، دفاعاً عن الأرض والوطن، عمّت الإضرابات والمظاهرات كل أنحاء البلاد، وكانت العمليات العسكرية لمجموعات الجهاد المقدس في الريف والمدن تتركز على معسكرات الجيش البريطاني، وبعض المستعمرات اليهودية، وشجع السكان والمجاهدين تسلُّلُ أعدادٍ من مقاتلي البلاد العربية المجاورة إلى داخل فلسطين.

في الأفق لاحت بشائر التقسيم برعاية وتحريض بريطانيا، في الوقت الذي تفاقمت فيه الهجرات اليهودية غير الشرعية تحت سمع وبصر دولة الانتداب بهدف الاجتياح وتهويد البلاد.

لقد حاولت بريطانيا احتواء الثورة التي عمّت وانتشرت

كالنيران، ولعبت مع القيادة الوطنية لعبة المفاوضات وبذلك استطاعت جرّها إلى هذا المستنقع. خلال ذلك صدر من الحكومة البريطانية بيان رسمي يلغي التقسيم لأنه غير عملي. ورغم هذه المراوغة والتواطؤ استمرت الاضطرابات واستمرت لعبة المفاوضات. لقد حدد العرب مطالبهم في: الاستقلال السياسي، والتخلي عن وعد بلفور في الوطن القومي اليهودي وإنهاء الانتداب. وبعد صدور الكتاب الأبيض الذي حدد الهجرة اليهودية إلى فلسطين استبشر العرب خيراً، غير أن دولة الانتداب مالبثت أن نقضت ذلك وتدفقت الهجرة اليهودية، وأعلن قادة العصابات الصهيونية بأن فلسطين ستكون دولة يهودية، واليهود لن يستغنوا عن أي قسم منها حتى ولو كان في قمم الجبال أو أعماق البحار.

وفي الوقت الذي كانت فيه فرق الكوماندوس والمظليين اليهود تتدرب بقيادة رجل المخابرات البريطانية «تشارلز وينجت» لدفعها بعد رحيل الانكليز إلى المواقع الاستراتيجية ومجابهة الثوار، كان العسكر الانكليز يطاردون أي عربي يحمل السلاح فيعدمونه أو يزجونه في السجن.

الشمس تميل نحو الغرب كسيفة. والثورة تهتز تحت ريح الانقسام والمساومات كأوراق الخريف. والقيادة المتواطئة والانتهازية تنوس بين القتال والمفاوضات السرية والعلنية. وفي ذلك الوقت المهتز والمظلم كان الشعب شعوباً وقبائل، وكان أعزل ومشتتاً ومغلوباً على أمره.

6

الحوار كان حاداً في تلك الليلة داخل الأسرة. تطور حتى وصل حافة الشجار.

كان قرار الوالد أن نرحل بعد أن بدأت قوافل المهاجرين تترك منازلها وأراضيها متجهةً نحو البلاد العربية المجاورة.

أبي وأمي كانا شبه متفقين على الرحيل إلى عينا بوس وترك حيفا إلى الأبد بعد أن استقال الأب من عمله.

وكان واضحاً أن المعركة غير متكافئة، رغم الاضطرابات والاشتباكات التي تقوم بين الفدائيين وعصابات اليهود والإنكليز.

اقترح والدي الهجرة عن طريق البحر إلى لبنان، وبذلك يتاح لنا أن نحمل معنا الأثاث الغالي، كما أن طريق البحر أكثر أماناً وراحة للأطفال والأم الكسيحة. واعترضت أمي قائلة بأن هناك شائعات عن إغراق بواخر المهاجرين في عرض البحر تقوم بها الهاغاناه. وقال الأب بأنه يعرف بعض الضباط الإنكليز وعن طريقهم يمكن تأمين سلامة السفر.

وحين اعترضت الأم على أن الإنكليز لايؤمن جانبهم، قال أبي بأن اليهود لايمانعون في هجرة الناس وربما كانوا متفاهمين مع الإنكليز على ذلك.

وكعادتها حاولت أمي أن تفلسف المسألة سياسياً فقالت: طبعاً. المهم أن تفرغ فلسطين من العرب فيأخذها اليهود لقمة سائغة.

ردّ والدي: طيب. هل نستطيع نحن أن نمنع ذلك؟ ألا ترين الشعب كيف ينجو من الموت بالهرب!

وفي لحظة غريبة ركب أمي عناد مفاجئ: والله سوف لن نخرج من هذا البيت. هذا بيتنا وهذه بلادنا ولن نتركها وليكن ما يكون.

كنا منهمكين في تجهيز الحقائب وجمع الأثاث الخفيف وترتيبه داخل العلب والحقائب والصناديق. لم يصدق أبي ونحن ما قالته الأم. اعتقدنا أنها غير جادّة وأنها تجتاز إحدى نوباتها الوطنية. وعندما طلبت منا أن نكفّ عن جمع الأثاث، قال أبي: مريم هل جننت؟ ألا تدركين ماذا يعني البقاء هنا؟

ـ هاه. قل لي ماذا سنفعل في البلاد الغريبة! سنحيا حياة ذليلة كحياة الشحاذين. وماذا سيقول الناس عنا هناك! انظروا إليهم لقد تركوا بيوتهم وأرضهم وباعوا بلادهم لليهود.

توقف أبي ونظر إلى أمي باندهاش: أأنت جادّة فيما تقولين؟

ـ نعم جادّة. ولن نرحل.

ـ ولكن هل نحن أفضل من أهلنا. كوني عاقلة يا امرأة. ألا ترين ماذا يفعل هؤلاء اليهود المتعصبون في المدن التي يدخلونها. إنهم يحرقون البيوت ويذبحون المذنب والبريء. من ينجينا من قنابلهم وسكاكينهم! بعد أن نصل لبنان نعود إلى بيتنا في عينا بوس.

صاحت أمي: تعال يا نافذ ساعدني على النهوض. اتجهت نحو الأمتعة والحقائب وراحت تفرغها وترمي بها نحو الأرض والأسرة. كانت حركاتها عصبية، وخلال انهماكها بالأثاث كانت تنثر شتائمها على اليهود وعلى العرب الذين تخلوا عن أرض محمد والمسيح فتخلى الله عنهم.

في تلك الليلة حاول أبي إقناعها بالرحيل لأن البقاء سيؤدي إلى الهلاك. لكن تلك الأم العنيدة عناد الصخرة، كانت ترفض السفر بإصرار، وهددت بأنها إذا أرغمت على ذلك فستحرق البيت حتى لايسكنه هؤلاء اللقطاء الذين جاؤوا من وراء البحار وهم لايعرفون آباءهم ولا أمهاتهم، أولئك الذين وسمتهم بأنهم ولِدوا سِفاحاً في شوارع وساحات البلاد الأجنبية.

استمرت، وهي تعيد ترتيب الأثاث، في البربرة عن الشرف والكرامة والشجاعة المفقودة، وقالت بأن الذين يتخلون عن البيت والأرض لايهمهم أن يبيعوا الشرف والعِرض.

كان أبي يترنح بين الغضب والمرارة. يدخن ويزفر وهو ينظر عاجزاً أمام هذه المرأة التي وضعت عقلها خارج الواقع الصلب والجارح. حاولنا أنا وأخوتي ثنيها عن عزمها وأفضينا برغبتنا في الرحيل أسوة بالناس الذين رحلوا، لكنها أخرستنا قائلة: أنتم صغار لاتفقهون شيئاً. لو رحلنا ففي المستقبل ستلعنوننا.

شرح أبي كمحاولة أخيرة بأن لاجدوى من البقاء، وإذا ما احتل اليهود الحي فسيعرفون أن الكولونيل محمد هو من أسرتنا، وهكذا فلن ننجو من المذبحة. ثم تحدث عن وضع البلاد وقلة السلاح وتشتت الثوار. وصرخت أمي: دعكَ من هذا الكلام. أنت لايحق لك أن تتحدث لا عن الكولونيل محمد ولا عن المجاهدين الذين يملؤون أحراش وكهوف الكرمل. ثم أنت ضد الثورة والمجاهدين فلماذا تتحدث عنهم؟

ولأول مرة ينتفض الوالد دفاعاً عن نفسه: أنت يا امرأة تضعينني مع الخونة؟ لماذا؟ عمري كله قضيته في الشقاء من أجل العائلة. من أين تعيش هذه الذراري لولا تعبي؟ انظري إلى بيتك المؤثث والمليء. ثم أنت ماذا قدمت لهذا البيت؟ أنت لست قاسية بل حقود. قلبك أسود علي لاعتقادك أنني لاأحب وطني وبلادي. من أجل

من عملت مع الإنكليز؟ أليس بناء الأسرة جزءاً من محبة وبناء الوطن؟

وقالت أمي باستهزاء: كاليهود كنت تجري وراء المال. لقد أفنيت عمرك تلهث وراءه.

- اسكتي يا امرأة. عليك أن تستحي من هذا الكلام العيب.

لابد أن أمي كانت مستفزة على نحو ما. ولم تكن الحالة الذاتية وحدها السبب. كانت كراهيتها وشراستها تندفعان كشيطان محبوس وهي تندد بالرجل - الزوج عندما قالت: أنت لست للسيف ولا للضيف ولا لغدرات الزمان. كثير الحركة قليل الفعل. الله يلعن اليوم الذي تزوجتك فيه.

كان واضحاً أن الزلزال الذي ضرب الأرض وصل النفوس. فالعائلة التي كانت آمنة وراضية أوقات السلم، هي ذي الآن في زمن الحرب تتشظى. بدأت الخلية تنقسم الآن على نفسها متفسخة بفعل هذا الجرثوم الذي اندفع عميقاً داخل كريات الدم.

استمرت الأم في هجومها واتهاماتها. وردت على كلمات العيب والحياء بقسوة: العيب وقلة الحياء والشرف يمشيان في دماء أشباه الرجال الذين تقاعسوا ولم يكملوا طريق الشهيد محمد. ثم صرخت بفحش المرأة التي كسرت على زوجها: وحياة النبي محمد. النساء أفضل منكم. ولو كان السلاح بأيديهن لما ضاعت البلاد ولاتشرّد العباد.

حدث ذلك كبرق أو كابوس.

اندفع والدي نحو أمي ليسكتها ويوقف سيل كلماتها النابية واضعاً كفه على فمها، لكنها هوت على الأرض لسرعة الاندفاعة. وهي ممددة لعنت أبي وشتمته: خنزير. يهودي. حينها هوى على وجهها بصفعة قوية.

وَلْوَلْنا وناديْنا الجيران. اندفعتُ نحو أمي لأردّ عنها الصفعات. كانت تصرخ وتسب موقدة أكثرَ نيرانَ الأب التي اندفعت من أعماقه كأنها استجابة ثأر لتاريخ طويل من الإهانات والإذلال والتحقير.

حين صفعها للمرة الثانية قال: لم أضربك في حياتي. لكنك لم تتركي مناسبة إلا وعرّضت بي حتى أمام الناس. صورتني أنني رجل بلا وطنية ولا شرف، وأنني تخليت عن أولادي وبلادي وأعمل لصالح الأجانب. حتى أولادي أرضعتهم حليب كراهيتي. امرأة قاصرة ومقعدة ومع ذلك لاتخشين الله ولاتحترمين زوجك. لم يقصر الله معك إذ كسرك لأن روح الشيطان تسري في دمك.

كان يقف قربها وهي تحت مرمى ذراعه. من خلال دموعها وكرامتها التي جُرحت تحت قبضة زوج كانت تطوّه دائماً قالت: آه ياجبان. تستقوي على امرأة قاصرة بينما الانكليز واليهود يركبونك. آه. يا حبيبي يا محمد. ليتني متّ معك في وادي النسناس!

وصرخ الرجل الجريح: سأظلّ أضربك حتى تصمتي أيتها الأفعى. عليك وعلى جنسك اللعنة إلى أبد الدهر. ورفع قبضته إلى أعلى. كانت قبضته ستهوي علي وأنا أغطيها بجسدي. وصرختُ: دخيلك يا بابا. دخيلك. لاتضرب ماما. أبوس حذاءك. دعها. إنها مريضة. وصرخ بي: أيها الكلب. انهض. أهذه أم تستحق الحماية؟

حاول جذبي بعيداً عنها. وصرخ أخوتي برعب: بابا. بابا. دع أمنا. وقلت ضارعاً: أحلفك بكل ما تؤمن به ألا تضربها.

وقالت أمي بغمغمة دامعة: استحلفه بالإسترليني، هذا هو إلهه!

وصحت بها: أمي. اسكتي. برحمة خالي محمد كفّي عن الكلام.

قال الوالد وهو يبتعد ويتميز غيظاً وحنقاً: يا ابنة الأبالسة. والله سأتركك تحت رحمة اليهود وحيدة ولن تسمعي بي بعد اليوم.

كانت أختي سامية تنادي الجيران من الحديقة، بينما انخرط بقية أخوتي في العويل.

حضر الجيران فرأوها مكومة في زاوية الغرفة تنهنه وتمسح دموعها.

استدار أبي إلى غرفة النوم وهو يستغفر الرب ويخزي الشيطان والنساء، لاعناً اليوم الذي ابتلي فيه بهذه الفرعونة.

7

الهجوم.

بدأ على حيفا في الأسبوع الأخير من نيسان بعد قرار مشروع التقسيم للاستيلاء على المدن الرئيسية وطرد العرب منها بالقوة.

عصابة الهاغاناه هي التي قادت الهجوم. ركّزت مدفعية الهاون على جبل الكرمل، واشترطت قبل بدء الهجوم هدنة إنذار تنصّ على النزع الكامل للسلاح من أيدي الثوار والمجاهدين خلال أربع وعشرين ساعة، ثم السماح لقواتها بتفتيش الأحياء العربية لجمع السلاح مع رفع الحواجز من الشوارع وتسليم الثوار المسلحين، وإشراف رجال الهاغاناه على الأمن في منطقة حيفا.

كان اليهود يسيطرون على جميع النقاط والمواقع الاستراتيجية في المدينة وجبال الكرمل عدا الميناء، حيث تتمركز قوات البحرية البريطانية. وعندما رفض المجاهدون شروط الهدنة الذليلة والتي تساوي الموت والاستسلام، ابتدأت المعركة التي زجّ فيها اليهود خمسة عشر ألف جندي من قواتهم.

وفي الوقت الذي أذاع فيه الجنرال البريطاني ستوكويل، قائد منطقة حيفا، أنه المسؤول عن أمن منطقة حيفا، وأن الانكليز لن يغادروها حتى أول آب بعد الانسحاب النهائي لقوات الانتداب، كان البريطانيون يدبّرون خديعة بالتواطؤ مع اليهود في المدينة. طلب

الجنرال ستوكويل من اللجنة العربية العليا التريث بدخول قوات شكيب وهّاب إلى حيفا لحماية العرب منعاً لاصطدامها بالقوات الإنكليزية، وفي الوقت الذي أخّروا فيه دخول القوات العربية كانوا يهيئون انسحابهم سراً قبل بدء المعركة بيوم واحد، مفسحين المجال لليهود بأخذ مبادرة الهجوم ضد الثوار العرب والأحياء العربية العزلاء من كل حماية.

كان الجيش البريطاني يتفرج على المعركة حين انصبت نيران خمسين مدفعاً من مدافع الهاون المركزة فوق جبال الكرمل على الأحياء العربية، التي بدأت منازلها ودورها وأسواقها تتهدّم فوق السكان تحت قصف شديد متواصل. وداخل المدينة التي يزلزلها القصف خاض الثوار قتالاً ضارياً غير متكافئ بأعداد ضئيلة وأسلحة قديمة في مواجهة قوات كثيفة مسلحة بأحدث أنواع الأسلحة. راح اليهود يتقدمون في شارع ستانتون وشارع الخوري بصعوبة شديدة أمام مقاومة الثوار وقتال الشوارع الضاري.

كانوا يهدفون عبر اندفاعهم إلى محطة سكة الحديد الواقعة وسط المدينة، للسيطرة على عقدة المواصلات.

وفي الشوارع والأزقة والمنعطفات وتحت الأنقاض كانت الجثث ملقاة، بينما المدينة تتقوض تحت عنف المدفعية التي تنصب عليها من أعالي الجبال. كانت حفنة من الثوار العرب من الحرس الوطني تناوش اليهود من شارع لشارع بأسلحتها القديمة من البرنو والمسدسات، وشهدت سكة الحديد معركة ضاربة استولى فيها اليهود على المحطة، ثم مالبثوا أن رُدّوا على أعقابهم تاركين في ساحة المعركة أكثر من خمسين قتيلاً وجريحاً.

على جبهتين كان المقاومون العرب يعملون: جبهة القتال وجبهة إنقاذ الأطفال والنساء والعجائز. أبعد الهجوم المباغت الذي جاء قبل نهاية الإنذار اليهودي، واندفع الأهالي من النساء والأطفال هارعين بذعر شديد للالتجاء إلى الكنائس والجوامع، اعتقاداً منهم

بأنها أماكن مقدسة تحميهم ولن يهاجمها اليهود. وإذ مالت كفة المعركة لصالح الهاغاناه وابتدأت تقتحم وتجتاح الأحياء العربية، اندفعت مفرزة يهودية وهاجمت كنيسة الموارنة في الحي المسيحي.

كان الأطفال والنساء والشيوخ متراصّين داخل الكنيسة وهم يرتعدون فزعاً عندما فاجأتهم فصيلة الهاغاناه وراحت تحصدهم بالرشاشات حصاد طيور محبوسة في قفص. كان الجنود اليهود يطلقون النار وهم يقهقهون صارخين: عرب ما فيه بعد اليوم في فلسطين. عرب يذهبون إلى الصحراء أو القبر.

أكثر من مئتي عربي اخترق رؤوسهم وقلوبهم الرصاصُ الإسرائيلي تحت جسد المسيح المصلوب وصور القديسين وأيقونات مريم العذراء. وهكذا تحولت أرض الكنيسة إلى بركة من الدم غاصت فيها أجساد راحت تختلج بدمائها وهي في نزعها الأخير.

راحت القوات الإسرائيلية تندفع، بعد أن تحطمت المقاومة، في أنحاء حيفا كلها. حتى المستشفيات لم تسلم من المذابح. ففي حمّى الهجوم الوحشي وتحت سطوة شهوة القتل، اندفعت مجموعة من المتعصبين اليهود المسلحين بالرشاشات والفؤوس الحادة إلى مشفى حيفا المركزي، وراحوا يطلقون النار ويذبحون العرب الجرحى ببلطاتهم المرهفة على مرأى ومسمع الأطباء الإنكليز الذين فرّوا نحو أروقة وأقبية المشفى خوفاً من المذبحة.

في تلك اللحظات الدامية والمأساوية، والعرب يختلجون بدمائهم في مذبحة حيفا، كانت دولة داوود تشق أسسها في أرض فلسطين الصلصالية. وكانت تلك الأسس التي ستمتد من صحراء النقب حتى البحر، ومن خيانة العرب وتخاذلهم حتى حدود العواصم، يُسقى إسمنتها بالدماء الحارّة وتُرصّ أرضها بالجماجم العربية سهلة القطع.

وفي ذلك الوقت الملعون بدا كل شيء مستباحاً ورخيصاً، وداخلاً في حساب المقايضة والربح والخسارة، بدءاً من فساد الأسلحة والنفوس والخيانة، وانتهاء بالشهداء المجانبين الذين لم يستر أجسادهم كفن.

8

مع ابتداء الهجوم المباغت والغادر على المدينة، حُسم الخلاف في الأسرة حول موضوع السفر.

كان الهياج والصراخ ينطلقان من حيّنا مختلطين بدويّ قنابل المدفعية التي تئز وتتساقط من أعالي الكرمل. وترددت أصوات عالية: إلى الميناء. إلى الميناء. كان هناك أفراد من المجاهدين يندفعون إلى الدور والمنازل طالبين من الأهالي الاتجاه إلى المرفأ حيث تنتظر السفن والزوارق لنقل الأطفال والنساء والكهول إلى مدينة صور في لبنان. وداخل البيت كنا منهمكين في تجهيز بعض الأمتعة الخفيفة عندما دخل فدائيان لمساعدتنا في نقل أخوتي الصغار وأمي. سألتهم أمي عن الأحوال فقال أحدهما: كما ترين يا خالة. الحالة سيئة ونحن بين نارين: نار اليهود وتواطؤ الإنكليز الأوباش. وسألت أمي إن كان عدد الثوار كبيراً، فقال الآخر: نحن بالعشرات وهم بالألوف. حيفا مطوقة والذبح بالعيال كذبح النعاج وجيش ستوكويل واقف يتفرج على المذبحة.

وقال أبي: حرب بلا أمل. نحن ضعاف ومنقسمون. وردّ الفدائي وهو ينقل الأمتعة إلى خارج البيت: يا عمّ لو كان هناك عرب وسلاح وذخيرة للّعنّا أبوهم. يا عمي بتقاتل الدبابة بالبرنو وبفشك فاسد! بشرفي ما أخذوا شارع ستانتون إلا بخمسين قتيلاً.

ودعَتْ أمي: الله ينصركم يا ابني على هؤلاء الكفار. إلهي يكون في عونكم وينجيكم من هذه النار.

لسان أمي الطويل وولعها بالثرثرة عن أخيها البطل الذي لم ينجب الزمان مثله كما تعتقد، أوشكا على الاندفاع عندما سألت الفدائي إن كان يتذكر معركة حسبة الهَدار التي انتصر فيها الكولونيل محمد عبد الفتاح، ثم جاء الانكليز واستعادوها بالدبابات وسلّموها لليهود فيما بعد. لكن الفدائي أجاب بأنه متطوع جديد في حزب الدفاع العربي، وأنه من قرية أم العمد التي تبعد أكثر من عشرين كيلومتراً عن حيفا.

في الشوارع والساحات والأزقة، كان الشعب يتدافع ويركض حاملاً خفيف الأمتعة والأثاث باتجاه المرفأ وطريق عكا البرّي المؤدي إلى نهاريا والناقورة.

عندما وصلنا إلى الميناء فوجئنا بحشد من آلاف الأطفال والنساء والعجائز وهم يتناكبون وينقذفون إلى البحر نحو السفن الراسية هناك.

خمسون ألفاً من الحيفاويين خرج من دياره وهام على وجه الشوارع والبراري والبحر في تلك الليلة والأيام التي تلتها، بعد الإنذار اليهودي ومجزرة يافا الشهيرة وسقوطها بعد حيفا بيد الهاغاناه.

التقينا بأعمامي على رصيف المرفأ المختنق بالأهالي. كانوا مع عائلاتهم وأولادهم. لقد بدا صعباً سفر الجميع عن طريق البحر لأن السفن لم تكن تتسع، وكانت الأولوية للنساء والعجائز والأطفال والمرضى. تشاور والدي مع أعمامي ثم اتفقوا أن يسافر أبي مع العائلات والأطفال الصغار عن طريق البحر، وأسافر أنا مع أعمامي عن طريق البر ثم نلتقي في صور. حتى المغيب ونحن ننتظر وأبي منهمك في البحث عن الضابط البريطاني الذي يعرفه ليسهل سفر

العائلة. مع الغروب صعدوا إلى السفينة بعد وداع ونحيب وتوصيات أمي لأعمامي بالحفاظ عليّ ورعايتي. طمأنت أمي بألا تخاف ولاتجزع لأنني ما عدت طفلاً وغداً نلتقي في صور. واتجهت مع أعمامي بسرعة إلى موقف سيارات عكا.

9

الخروج.

بدأ على شكل انقذاف أعمى بعد الهدنة، وغبّ الشائعات التي انتشرت كالنار عن زحف اليهود وعمليات الإبادة الجماعية التي ترتكبها اشتيرن والهاغاناه. لم يكن أولئك الإرهابيون يتورعون عن ذبح الأطفال، وتمزيق أحشاء النساء الحوامل بالحراب، واغتصاب الصبايا الجميلات، وجرّ الأسرى بالسلاسل إلى معسكراتهم وأحيائهم ليعرضوهم على شعبهم وهم يهزؤون منهم: هؤلاء هم عرب الصحراء الشجعان. العرب الذين غزوا العالم وأقاموا امبراطورية محمد بالسيف والقتل. انظروا إليهم اليوم كيف أذلهم إله إسرائيل وحولهم إلى عبيد سيخدمونكم في مزارعكم وبيوتكم هؤلاء الرعاة يعودون إلى أصلهم الأول مسخَّرين لكم كما قال الإله يهوه لنبيه يوشع يوم انتصر في أريحا وعاي وحاصور.

وفي المعسكرات والمستوطنات قرأ أحبارهم من سفر يوشع: «تفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها، غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم. وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل وفي البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً. جميع أهل عاي، وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل

لأنفسهم. وأحرق يوشع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً. وملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يوشع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة».

وعبر البر والبحر هام الشعب الخائف والحزين على وجهه. شيوخ وأطفال ونساء تدفقوا عبر ثغور الأردن وسوريا ولبنان بعيداً عن الفتك الذي ابتدأ في طول البلاد وعرضها، مخلفين وراءهم البلاد التي تسبح الآن في دمائها.

كان الزمن صيفاً، وكان الخوف وطلب النجاة قبل عبور الحدود سحابة سوداء تخيم على النفوس التي تخلت عنها السماء والأرض.

وتحت سماء من الصهد والعطش والجوع والتعب، في السفوح الوعرة وشعاب الدروب ومجاري الأنهار، تشتت الشعب شتات قطيع داهمته ذئاب مفترسة من كل فجّ عميق.

كان الأطفال يبكون والنساء يولولن بينما الشيوخ يندهون بالصبر واحتمال البلوى وهم يقرؤون ذكراً من آيات الله وأحاديث الرسول، داعين الشعب ليشدّ عزيمته في اجتياز التيه وامتحان الله للإنسان المؤمن في هذا الوقت الصعب.

ومن بين هذه الجموع التي نجت من المذابح، كانت تُسمع عبارات الغضب واللعنات على الإنكليز واليهود والعرب الحكام والخونة، كما كانت عبارات الرحمة والتشهد ترتفع نحو السماء على أرواح الشهداء الأبطال الذين قضوا في القسطل ويافا والقدس وباب الواد ومرج ابن عامر وحيفا وصفد.

كان الأقوياء يساعدون الضعفاء، ومن حمل طعاماً وماء اقتسمه مع الجياع والعطاش، وحين يهوي المتعبون والمرضى

يندفع الفتيان والرجال ليوكئوهم على أكتافهم: تشجعوا يا أخوتنا. تشجعوا. اتكلوا علينا وعلى الله. الحدود قريبة.

ـ سنموت قبل أن نبلغ الحدود.

ـ لاتخافوا. يد الله مع الجماعة.

ـ يا عمي. والله ما عاد فينا حيل.

ـ قولوا يا الله. اتكلوا على الذي لايُتكل إلا عليه.

ـ آه. آه. شايفلكم أنو الله ما عاد معانا. هالحين صفّ مع اليهود ونسينا.

ـ حرام يا عمي. حرام هادا الكلام. هادا كفر.

ـ كفر أم إيمان! كيف ينصرهم ويكسرنا ورسولنا قال: أنتم خير أمة أخرجت للناس؟

ـ يا عمي. يبلوكم ليرى قوّة إيمانكم. أنا شايف إنو ما عاد فيه إيمان بصدور العباد وهذا سبب كسرنا.

ـ آه. آه. والله الرسول وجماعته ما انتصروا بالإيمان وحده. بالسيف يا عمي بالسيف أخذوا النصر. الله يرحم الشاعر اللي قال: السيف أصدق أنباء من الكتب.

ـ دعونا من هذه الفلسفات والفذلكات وخلونا بحالنا. الدهر حطّ علينا وهذا الزمن ليس لنا.

ـ لمين الزمان يا خالة؟

ـ الزمان للقوي. للي عندو سلاح وبسّ.

ـ خاننا الإنكليز والعرب.

ـ وقيادتنا الملعونة لاتنسوها. والله. والله عبد القادر الحسيني وهو جريح قطع الجبال والفيافي من الشام حتى وصل القسطل وعمل في اليهود عمايل ما عملها عنتر بن شداد في زمانو.

لكن القيادة السياسية هي السبب في استشهاده. قيادة التفرقة والركض وراء الزعامة والمال والجاه.

ـ ووراء الألمان مرّة والانكليز مرات.

ـ كل هذه البلوى من المفتي وجماعته.

ـ لو كنا مع أنفسنا ما صار اللي صار.

وماكانت الحوارات تنتهي ولا تأنيب الضمير ولا الشكاوى والتهم. بدت الكارثة بفداحتها كأنما أوصلت الناس إلى جحيم اليأس وأبواب العار في الوقت الذي كشفت فيه ظلام الأعماق الجريحة ومكامن العطب.

10

فوق الطريق الساحلي من حيفا إلى صور، كانت قوافل الباصات والشاحنات تعج بالناس والأمتعة، وعلى مناكب الطريق انتشر المشاة الهاربون وراحوا يلوّحون للسيارات والعربات التي تنوء حتى سطوحها بالبشر والأثاث. وعبر القرى والمزارع انتشرت أخبار مريعة عن زحف اليهود وتقدمهم ومذابح الأطفال واغتصاب النساء. كما فاضت الشائعات حول استسلام الثوار وخيانات العرب وتواطؤ المفتي والملك عبد الله والموافقة على التقسيم.

تحت سطوة هذه الأحوال المؤلمة، والشتات المفلت من عقاله، كان الخائفون والمجتاحون يطلقون صرخات: الأرض ولا العِرض، بين عويل الصبايا العذراوات، ونواح العجائز الندابات. كان هؤلاء النسوة يَهْبنَ بالرجال لإنقاذ الفتيات والحريم من اغتصاب اليهود وتلويث الشرف. بدت الحياة الشخصية وحياة العائلة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه دفاعاً عن النوع، تبدو كأنها بذرة البقاء بعد انفراط عقد الوطن واجتياح الأرض.

كنا على أبواب الفجر والشاحنة تترنح بنا ونحن نستلقي داخل صندوقها المكشوف. ومن البحر كان يأتينا نسيم غربي رطب. ونحن نقترب من نهاريا.

كنت محشوراً بين الناس أستند إلى جدار الشاحنة قرب عمي صالح الذي كان يحدق طويلاً في السماء. لاحت السماء عكرة كأنها

رُشّت بالغبار وبدا عمّي منقبضاً وساهماً، بلحيته التي وخطها الشيب وجبينه المغضن وسنواته الخمسين التي زادتها أحداث الأسبوع الأخيرة أكثر من عشر سنوات هرماً.

مع شروق الشمس تململ المتعبون والنيام فوق أمتعتهم، وقال عمي: انهضوا يا جماعة. قوموا شوفوا. والله في السماء يوجد شيء غريب.

وحركني: ولك نافذ ابن أخي. انظر معي انظر. أنا شايف الشمس كأنها مكسوفة.

النعاس والتعب وارتجاج صندوق السيارة اللعينة، أعيانا عبر هذا الطريق المحفّر والملتوي. نظرنا إلى عمق السماء بعيون يغشاها النعاس والسهد. كانت الشمس مطوّقة بهالة من غبار يشبه زهور عباد الشمس.

وقال عمي سالم: آه. يا حسرتي حتى الشمس تبكي علينا. كان هو الآخر مرمياً في الزاوية يعاني مغصاً مزمناً من مرض الكولون.

أمامي كان يقعي عجوز هرم شبه أعمى، تسيل من عينيه دموع متواصلة. راح طوال الطريق يتمتم أدعية وهذيانات حول الجحيم والجنة وعقوبات الرب للكفرة والمشركين، مبشراً بقرب القيامة ونهاية العالم لأن الأعور الدجال قد ظهر على صورة إله اليهود، وبظهوره الشيطاني سيظهر له عدوّه الرحماني وهو النبي الخضر الأخضر سيدي الرفاعي الذي سيرسله الله مع جنوده من بيت المقدس الشريف ليفني اليهود والعالم. عندما سمع عمي سالم وصالح يتحدثان عن كسوف الشمس، حوقل وبسمل وهو يمسح دموعه: هذه علامة من علامات القيامة وغضب الله. أبشروا بظهور سليل الرحمن وسيّد الزمان والذي سيعيد إلى فلسطين مجد بني كنعان. الله أكبر والعزة لذي العزّة فالق السموات والأرض. وراح يقرأ من سورة يوسف: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين.

أصابتني رهبة وأنا أسمع الشيخ يهذي، فالتحمت أكثر بعمي وأنا أرتعش. سألني إن كنت أشعر بالبرد فقلت. لا. إنني خائف من هذا. وأشرت إلى الشيخ الذي أخرج مسبحته الصفراء الطويلة وراح يطقطق حبّاتها وهو يهز رأسه كالدراويش إلى الأمام والوراء. وقال عمي: لاتخف هذا رجل مسكين وممسوس ورفاعي. وشرح لي أموراً غريبة عن طريقة الرفاعية المتصوفة وحلقات ذكرهم وضرب أجسادهم بالسكاكين والسفافيد وهم يصرخون: مدد يا رفاعي مدد. وعندما سألته إن كانوا يموتون من الطعن نفى ذلك: قوّة إرادتهم تفوق طاقة الجسد. لقد تدربوا على تجاوز الموت بقوة الروح، الروح هي الأصل والجسد هو الفرع. الروح هي الرفاعي. وشرح لي، وأنا لاأكاد أفهم، عن الطقوس الخاصة والسريّة التي يقوم بها الرفاعيون في حفلات الزار والطعن وإظهار المعجزات الغريبة من خلال قوة الروح والإرادة، وكيف أن هذه الطقوس تتم في جو أسطوري غريب تخيم عليه رائحة البخور والصلوات وأصوات الطبلة والمزهر، وإيحاءات السيد الأكبر الذي يشرف ويقود الحضرة الواقعة تحت سيطرته وأوامره. هذه الحالة تدخل الرجل الذي سيطعن نفسه بالحربة في حالة غيبوبة. يتخدر الجسد وتتجلى الروح متقمصة الرفاعي السيد الأكبر. الطعنة، كما يعتقدون، يتلقاها السيد الذي دخل الجسد كروح وإرادة قوية تقهر الحديد والنار والزجاج والسمّ. وختم كلامه بأن بعضهم مدرب على إمساك الجمر، والضغط عليه بالقبضة دون أن يحترق، وآخرون يأكلون الزجاج وشفرات الحلاقة ويمسكون الأفاعي المسمومة فيخضعونها لأنغام خاصة بحيث تخرج من أوكارها وتأتي إليهم صاغرة: إنهم ينادونها لتخرج: تعالي يا مباركة. باسم الملك سليمان ابن داوود ملك الأنس والجان. وبقدرة مولاي وسيدي وشفيعي الرفاعي أطلب إليك أن تخرجي من الدار الضيقة إلى الدار الوسيعة. اخلعي ثوبك الأسود والبسي ثوبك الأبيض، ثوب العرس والأفراح والليالي الملاح الذي زفوك فيه لسيد الجان الملك سليمان. هيّا. مدد يا رفاعي مدد.

ويبدأ بعد هذا النداء يغني لها ويضرب على المزهر حتى تخرج إليه طائعة فيصيح: انظروا معجزات سيدي الرفاعي الذي أخضع الأفاعي في أوجارها والأسود في غاباتها والصقور في جبالها. انظروا واتّعظوا يا جبابرة الأرض الصغار.

بعد هذه الحكايات التي أخافتني في البدء ثم شدّت انتباهي ولذّت لي حكاية صيد الأفاعي، سألت عمي عن قصة الشمس وكسوفها فقال بأن الأمر حادث طبيعي له علاقة بدوران الأرض والقمر.

ـ ليس من أجل فلسطين انكسفت إذن؟

ـ هيه. هيه. دعك من خرافات عمك سالم. يا نافذ يا ابن أخي بعد أن نصل بالسلامة ستتعلم وتأخذ شهادات ويتفتح عقلك وتضحك على هذه الخرّيفات. سأقول لك كلمة تذكّرها: اليهود غلبونا بالعقل والعلم. نحن جماعة ضعاف العقول مازلنا نعيش في العصور الحجرية وبس نطلع من هذه الكهوف القديمة نغلبهم.

لابد أن صور تقع في نهاية الأرض، ولن نصلها قبل أن ننهك وننفق في هذه الشاحنة التي تعود إلى ما قبل التاريخ.

إنها المرة الأولى التي أبتعد فيها عن أمي. كانت علاقتي قد توطدت بها منذ أصيبت في وادي النسناس، وتعمقت أكثر بعد أن صارت بقدم خشبية.

ـ ماذا لو ماتت أمي في البحر؟ سألت عمي صالح فجأة على غير توقع منه. مسح شعري ثم ربَّت على كتفي وقال: من أين تأتيك هذه الأوهام؟ تأكد أنهم سيصلون قبلنا وعندما نصل سيكونون في لقائنا.

وقلت: لكنني خفت من كسوف الشمس.

ـ لماذا؟

ـ يقولون بأن ذلك نذير شؤم يا عمي.

ـ عجيب! أنت في عمر الشباب ولست طفلاً ومعك شهادة كفاءة فكيف تفكر كالدراويش؟ يا بُني قلنا لك بأن كسوف الشمس يحدث دائماً من تداخل القمر بين الشمس والأرض.

ـ لكن قلبي يدق يا عمي. إنني خائف ألّا أرى أمي وأبي وأخوتي. خائف أن يغرقوا في البحر.

ـ هو ما في غير أمك في البحر. أولادي وزوجتي وأولاد عمك سالم وزوجته. نصف أهالي حيفا في البحر. الناس تصل بحماية الإنكليز، واليهود عندهم عيد لتفريغ حيفا من العرب.

قال ذلك بغضب ومرارة، وبنبرة توبيخ أخرستني. تحاملت باستخذاء مبتعداً عنه وانزويت في الزاوية قرب عمي سالم الذي كان نائماً.

ها نحن في الناقورة أخيراً. ترجلنا لنأكل ونستريح. في مركز انطلاق السيارات كان هناك لغط وازدحام وأصوات السائقين والمعاونين: صور. صور. أين ركاب صور؟ وكان الأهالي الذين سبقونا وأهالي المدينة يسألون إلى أين وصل اليهود؟ وهل أخذوا حيفا؟ وكم عدد النازحين؟ والقتلى هل هم بالآلاف؟ وأين الجيوش العربية الجرارة؟ وهل حقاً باع الفلسطينيون الأرض ليكسبوا العِرض؟ ومتى يصل اليهود إلى هنا؟

في تلك اللحظات المريرة والمشتتة كانت الأجوبة أكثر مرارة، وما كان بعضها ليقنع المذعورين الواقعين تحت سطوة الشائعات والمبالغات والدعاوى الملفقة.

بدا الشعب كأنه تحت إعصار أو فيضان مجنون اجتاحه في غفلة من نفسه فأضاع صوابه، وراح يجرفه كورق الخريف صوب البحر أو الصحراء. حتى التشبث بصخرة ما كان ممكناً في لحظة الانهيار على سفح الهاوية. كانت السماء والأرض مسحوبتين من

تحتنا ومن فوقنا وكنا نتأرجح في الفضاء العاري. بدا كأن حالة التوازن فقدت، وأننا صرنا خارج الجاذبية.

بعض الشيوخ والعجائز كانوا يجيبون بعصبية على أسئلة الأهالي والناس المذعورين، بأن الأحوال سيئة والشعب مجروح وواقع تحت رحمة الله، ثم يستدركون بشفاعة أمل وخشبة نجاة وهمية بأن الله العزيز الحكيم لن يتخلى عن عباده الذين يتجملون بالصبر والسلوان، وأن من أراد البقاء فليستعِنْ بالرحمن ويكبس الجرح بالملح، ومن أراد الخروج فليتوكلْ فلن يصيب الإنسان إلى ما كتب الله له. ولنا أسوة بهجرة الرسول الأعظم يوم حاصره الكفار في مكة فأسرى مع صاحبه إلى المدينة ثم تبعه المهاجرون. واليوم أنصارنا هم عرب لبنان وسوريا والأردن ومصر. هؤلاء أخوتنا ولن يتخلوا عنا في هذه المحنة.

11

كانت المدارس والجوامع والكنائس والمستشفيات وبيوت الصوريين تتلقى أفواج النازحين، المدينة بكاملها هُرعت وهبّت للنجدة والمساعدة. البحارة وعمال الميناء وطلاب المدارس والموظفون كانوا ينقلون الأطفال والمرضى والأمتعة من الميناء ومراكز التجمع تحت جنح الظلام. وخلال وصولنا ليلاً كانت المدينة غاصة بالحركة والبشر. بدت المدينة مستنفرة لإنقاذ الناس ومساعدتهم، وكنا نسمع البكاء والآهات وصرخات النسوة الباحثات عن أطفالهن. ووسط الهرج والصخب كان أهل المدينة المستنفرون يخففون البلاء بالأطعمة والمياه. جاؤوا بالبطانيات والبسط والثياب من منازلهم وحوانيتهم وراحوا يوزعونها مجاناً. وانطلقت فرق الإنقاذ والمساعدة من الطلاب والشرطة تواسي الشعب المُهان والمكسور: صور هي حيفا. أنتم في حمى أهلكم. سنقتسم معاً الخبز والزيت والملح والماء والثياب والنوم. نحن أخوة وأنتم في دياركم.

وكان آخرون يطوفون على الشعب المرمي في الساحات ومرائب السيارات وساحات الجوامع والمدارس ومعهم أدوية للمرضى والجرحى، بينما انطلق بعض رجال الدين يوزّعون أدعيتهم وشتائمهم على اليهود القتلة الذين استباحوا أرض محمد والمسيح، وخالفوا شريعة نبيهم موسى وعصوه فتاهوا أربعين عاماً في

الصحراء عقاباً لهم. لقد حاربوا رسول الله في خيبر فحقّت عليهم اللعنة إلى يوم الدين: وبشر القاتل بالقتل والزاني بالفقر وديار الظالمين بالخراب يوم الحشر والدين.

ماكنت أعتقد أو أتصور أن يوم الحشر والدين سيكون أقسى من هذا الحشر الذي نحن فيه. لقد كنا كالأسرى والعبيد في تلك الأيام السوداء. كل ما كنت أراه وأسمعه كان شعاعه يتوهج في وجه أمي وأخوتي الذين نبحث عنهم مع عائلة أعمامي في ساحة الميناء والشوارع ومراكز التجمع.

سمعنا الشائعات تتناقل عن حصار آلاف العائلات والأطفال الذين اختبؤوا في زوارق صغيرة بين البوارج والدارعات الإنكليزية في قاعدة مرفأ حيفا العسكرية خوفاً من هجوم اليهود، بانتظار الإبحار بهم إلى صور، ولكن البحارة الإنكليز رفضوا تقديم الماء والطعام لهؤلاء المحاصرين. ووصلت أخبار من شهود عيان تتحدث عن هجوم الهاغاناه على المرفأ و [illegible] بعض الزوارق التي انكشفت في عرض البحر بعد ابتعادها عن البوارج الإنكليزية. ضربوها بالرشاشات والمورتر فجرح واستشهد غرقاً مئاتُ الأطفال والنساء في أعماق البحر.

رواية القادمين من عكا وصلت بعدنا. كانت أخباراً مريعة. القتلى والجرحى بالآلاف. مستشفى المدينة غصّ بالمصابين. الفرش والبطانيات والحصر مُدّت في ممرات وأروقة المشفى. لقد استخدم اليهود رصاص الدمدم السام فكان الجرحى ينفقون بجراحهم التي سمّمها الرصاص.

حتى الصباح ونحن نبحث عبثاً عن العائلات والأطفال. قالوا لنا إن صور ازدحمت فأرسل قسم من الشعب إلى مراكز تجمع في الضواحي والقرى في الرشيدية، وبرج رحال، وبنت جبيل.

قال عمي صالح: إما أنهم تأخروا أو أُرسلوا إلى خارج صور. سنذهب لنبحث عنهم في القرى. كنا الآن في جامع عمر بن الخطاب

نتكوم في زاوية منه بين عشرات العائلات التي تناثرت في الساحة وداخل المسجد وعلى المداخل. كتل من أشياء شبيهة بالبشر الأحياء، تكومت تحت أسمال من بقايا الثياب والحصر والبطانيات والمعاطف البالية.

بعد أسبوعين في مدينة صور أصابنا يأس وتحققنا من الكارثة. عمّاي مع آخرين فتشوا عن العائلات في جميع القرى التي أرسل إليها النازحون ولم يتلقوا خبراً. كل يوم. كنا ننزل إلى المرفأ صباحاً ومساءً فتصلنا أخبار عن بواخر ذهبت خطأ إلى قبرص، بعضها تابع رحلته إلى سوريا أو بيروت. عمي صالح سافر إلى بيروت وسوريا وعاد بخفي حنين. في الأسبوع الثالث قطعنا الأمل وأيقنت أن وجه أمي ووجوه أخوتي وأبي قد غابت إلى الأبد.

كنت في ساحة الجامع. سمعت الناس يروون عن هجوم الهاغاناه على الزوارق والبواخر التي تحمل المهاجرين، وكيف اندفع هؤلاء في زوارق حربية سريعة وراحوا يحصدون العائلات والأطفال في عرض البحر حتى تحوّل البحر إلى حقل من دمّ، تسبح فيه الرؤوس والأيدي والأرجل المقطوعة تحت مرأى ومسمع جنود البحرية الإنكليز.

تخيلت أمي وأخوتي طافين على سطح البحر وقد مزّقهم الرصاص فاندفع بكائي شهيقاً لكأن عيني أصيبتا بطلقتين. كانت الدموع تتفجر وتنهمر كالدم. رحت أضرب الحائط وأدق بلاط الساحة صائحاً: أين أمي، هاتوا لي أخوتي وأبي. أريد أن أعود إلى حيفا. آه. يا أمي. آه. يا غالية. يا حنونة. أريد أن أموت.

لاحت صورتها محمولة على أمواج الدمع فيزداد نحيبي. مرة وهي تهوي فوق خالي جريحة، ومرة وهي تنادي في مقبرة الشهداء وتندب، ومرة وهي تحجل في البيت وتضمني بين ذراعيها وتروي لي حكايات، ومرات وهي تطفو على وجه البحر ثم تغيب سابحة

بدمائها وهي تصرخ ثم تصمت ثم تحاول أن تمدّ ذراعيها ثم تهوي لتتحول طعاماً للأسماك.

عبر هذه الأطياف ما كان الدمع ليتوقف. أقبل الناس يحاولون تهدئتي؛ ضربت الأولاد والنساء وشتمتهم: أريد أمي. آي لو أموت. لطمت رأسي بجدار الجامع. وعبر بروق الدمع لاحت جثث أخوتي الصغار تطوق جثة أمي وهم غارقون في برك ودوائر دمائهم: آه. آه. لماذا ماتوا؟ ماذا فعلوا ليقتلوهم؟ ليتني بقيت ومتّ معهم. ماكنت أسمع شيئاً مما يدور حولي غير الطنين ولا أرى غير الأشباح. كان الدمع يغشى بصري. وكانت الأيدي تضغط على زندي وتمسك رأسي وتطوقني وأنا أتملص مندفعاً هادراً كحيوان مجروح: اتركوني. أريد أن أموت. ابعدوا عني. ماما. ماما. أين أنت يا نور عيني. يا ضيا قلبي. آخ. آخ. متّ وتركتني وحيداً. كيف سأعيش بعدك!

الصفعات التي تناولت وجهي آلمتني. حدّة وجعها تخطى الألم النفسي وانفجارات الدمع. من خلال شفافية العبرات لمحت وجهاً شبيهاً بوجه عمي صالح. كان يصلب ذراعي على الحائط ويتناوب صفعي على خدي بكفين صلبتين. بدأ رأسي يثقل. من شدة اللطم والصفعات تدلى. لقد قطع عمي صَلاته وهُرع نحوي حين أخبروه. وجهه الذي ميزته وأنا أستفيق كان في سواد القار، وراح تحت غضب مكتوم مستعر بالقهر، يؤنبني: كلب. مجنون. ماذا دهاك! تشمّت الناس فينا في هذا الوقت الضيق! ألا تخجل؟ طفل أنت حتى تفعل ذلك؟ عمرك خمسة عشر عاماً وتتصرف كالأطفال. آلاف الناس ماتوا والآلاف تيتموا. بلاد بكاملها تحت السكين والبارود وأنت تبكي في البلاد الغريبة كالحريم. أفِقْ على نفسك. أفِقْ. اعترضته: دعني.. دعني أريد أن أموت. حاولت التملص من ضرباته وأنا أصرخ. صدَمتْ كفه أنفي فأرعفت وسال الدم فصحت موجعاً. امسكني بمقدم شعري ثم رفع رأسي إلى أعلى في مواجهته. جحظت عيناي: يا ابن الكلب. والله إن لم تستيقظ سأذبحك. وبسرعة سحب من جيبه مطواة فتحها ووضعها على رقبتي: يا حيوان. يا امرأة. ألا

يكفينا ما بنا! أأنت الوريث والشبل الذي قال عنه الشيهد محمد هذا سيكمل طريقي؟ بالدموع ستعيد فلسطين؟ أهكذا يتصرف ابن الشهداء؟ تفوه عليك وعلى البطن الذي حملك. يا ليتها حملت جرواً ولم تحملك.

استخزيتُ، تهالكتُ مستسلماً ليديه. كانت كلماته تنفذ كالسكين إلى القلب. طوى المدية وجرّني إلى داخل الجامع. كنت متعباً حتى العياء وكأنني خارج من معركة.

ألمي وحزني انفجرا كما ينفجر دمل تحت ضربة مبضع.

في زاوية المسجد أجلسني عمّي في حضنه وراح يمسح دم أنفي ودموعي. طلب لي ماء وسقاني. قال وهو يمسح وجهي وشعري بحنان الأب: اخرج واغسل وجهك. العن الشيطان واستخزه واستغفر الرحمن.

بعد غسل رأسي ووجهي عدت صاحياً. اقتربت من عمي وقبلت يده: سامحني يا عمي. سامح ضعفي وألمي. قال: بل سامحني أنت لأنني قسوت عليك أكثر من اللازم. ثم أخذني بين أحضانه وقبلني: إذا مات أبوك وأمك يا نافذ يا حبيبي فأنا أبوك وأمك. نحن أيضاً فقدنا عائلاتنا وأولادنا وما بكينا. شجرة البلاد تذبل بالدموع وتنمو بالدماء وهذه الشجرة الذابلة تحتاج دمك في الأيام القادمة.

الفصل الثاني

زمن الرعد والإزهار

1

الغربة.

اجتازت عشرين عاماً من التيه. من الأنفاق المظلمة، والممرات الضيقة، وبوابات النار. عشرون عاماً من التيه: من حيفا إلى لبنان فالأردن فالعراق فمصر فالكويت فسوريا، ثم عينا بوس أخيراً. مياه كثيرة عَبَرت تحت جسرها، وآلام بحجم الأرض مرت فوق الجسر. تيه وشتات عبر دروب الأرض الملعونة، وفي كل نقطة من الكرة الأرضية يحمل الذي عاد بلا وطن تهمة: الغريب. قربها صرخته الجارحة: متى أعود؟

وماكان أحد بريئاً من دمه المباح.

وماكان أحد بريئاً من أكل لحمه الحيّ والميت.

وفي زمن التيه وتضميد الجراح، قال عنه الأشقاء في بلاد الغربة، حين خُدعوا بسكينته، لا هو حيّ فيُرجى ولاميت فيُنسى.

وكما قال العجوز في شاحنة حيفا - صور: لا السماء كانت شفيعاً ولا الأرض كانت حنوناً.

وكان منبوذاً ومطارداً ومُلقى كالوباء على أطراف المدن العربية، ينام مع الذل والارتهان. ويستيقظ على صرخات المعتلقين والذين يُساقون إلى ساحات الإعدام في الفجر والضحى.

انفجار من الحقد والكراهية واللامبالاة والغدر والنبذ، ثم التُهم التي تُرشق كطلقات البنادق حول الجبن والهرب وبيع الأراضي وتسليم الوطن للأعداء بلا ثمن.

أما الذين نسوا خيانة عبد الله والشرباتي وصالح جبر، وفساد أسلحة فاروق وهزيمة خمسة جيوش جرارة، عبيد صاحبة الجلالة، فقد كانوا أنقياء وأطهاراً إزاء أولاد الزنا الذين سلموا أراضيهم ونجوا بعِرضهم.

هكذا تناوشوه، هو الجريح، كضباع كريهة الرائحة، ثم قذفوا به إلى الخيام تحت العراء العاري. وفي زمن التيه كان العراء والبراري والوحوش أكثر رحمة وأوسع صدراً.

لقد أهانوه وضربوه وهو مكبل، ومسحوا بجسده عار خيانتهم، ولم يتوانوا عن ذبحه عندما طلب منهم سادتهم في لندن ونيويورك وتل أبيب، وما اتقوا في ذلك غضب شعوبهم يوم يُحاسبون بدمه في يوم قيامته.

وعبر عشرين عاماً آجروا به وطردوه كطاعون أو جراد حلَّ عليهم في يوم صائف.

وخلال تلك السنوات السود، عبر الشعب المكسور الظهر مطهره تحت صهد الشمس والجوع والعطش، وسياط الذل اللاسعة. لقد قاوم بالروح المنبثّة في تجاويف الصخر، ضرباتِ الريح والأمواج وغضبَ آلهة الأرض.

وفي حقبة الظلام وأزمنة الشدّة، تعلم الشعب الصابر والمستباح، عدم المغفرة والحقد الصامت، في الوقت الذي كان يخيل فيه لجميع الأعداء أن روح النعاج بدأت تتسرب إلى روحه بفعل مصل الإهانات الذي يُعطاه كل مشرق ومغرب شمس.

وفيما بعد، بدا واضحاً أنه كان وفياً لنذر نذره في سرّه، وهو يُداس بالأحذية، ويضرب بأعقاب البنادق، وتنزع أظافره في

التعذيب على يد الجلّادين العرب، مشيّعاً موتاه ليدفنها في براري المخيمات: ألّا يغفر لجلاديه، ولايرحم الكلاب التي مزقت لحمه وولغت في دمه.

ومع أن الأرض كانت رخوة وجرداء تحت شمس حادّة، إلا أن الأغصان التي سقطت في خريف الزمن، كانت تدفن ثمارها في رحم الأرض. ومن ندى الصباحات البكر وقطرات المطر استطاعت بذور الثمار الدفينة امتصاص ما يصل إليها من رطوبة، لتبدأ دورة الأرض الجديدة حفاظاً على بقاء النوع.

2

درستُ في العراق في كلية التربية وعلم النفس، ثم هاجرت إلى الكويت وعدت ومعي بعض المال من التدريس، فيما بعد تطوّعت في الجيش الأردني وأتقنت صناعة المتفجرات وقنابل المولوتوف، وسجنت عامين بتهمة إطلاق النار على ضابط مخابرات أردني، ثم سُرِّحت وعدت إلى عينا بوس وتزوجت امرأة بسيطة من القرية.

وحتى لا أنسى، وتذكاراً للشهداء، أقمت في المزرعة المجاورة للبيت أحد عشر قبراً رمزياً: قبر للكولونيل محمد، وقبران للوالدين، وثمانية قبور صغيرة لأخوتي الذين اغتيلوا في البحر قبل أن تورق شجرة الدنيا في عيونهم. وعبر السنوات الضائعة التي كانت بالنسبة لي سنوات الاختمار، بدأت بعض التدريبات الروحية والعضوية.

فبعد فناء وموت العائلة في البحر حدث في داخلي صَدع عميق حول الحياة والموت، وحول الإيمان والعقل. لم أفهم لماذا مات أهلي، كما لم أفهم لماذا تخلى الله عنهم وهم أبرياء لم يرتكبوا ذنباً ولا خطيئة. موتهم زلزل إيماني فيما بعد كما ولّد في أعماقي شعوراً بتفاهة الإنسان وسقوط قيمته في نظر الخالق الذي تخلى عنه في وقت المحنة.

ـ لماذا تموت المخلوقات الجميلة والبريئة؟

وما كان هناك من جواب مقنع سوى الفراغ، وتلك الهاوية التي لاقرار لها. الهاوية التي غاروا فيها إلى الأبد. كان الموت هو

الحقيقة المفزعة التي صدمتني وأنا على أبواب الحياة. الحقيقة التي كشفت لي عبور الإنسان على شعرة الحياة الرفيعة والهشّة، عارياً ووحيداً بلا شفيع أو منقذ.

في الجامعة تزودت بعقل بارد، ومراقبة منطقية لحقائق الحياة، ورفض داخلي للميراث الأسطوري والديني. ميراث حوّل حياة شعب إلى استسلام غيبي، واتكال أعمى على قوى خفية وهمية يدعوها صباحاً ومساء لتخرجه من منفاه وتنهي محنته، مناجية الطير الأبابيل لترجم أعداءه الذين شردوه وطردوه. وفي الوقت الذي كان فيه هذا العدو يحصّن بالإسمنت المسلح مدنه التي اغتصبها ومستعمراته، ويحصن رأسه بالعلم والحقائق الجديدة والمستحدثة، كان القسم الأكبر من شعبي سادراً يهدم حياته بالرُّقى والتعاويذ والصلوات واحتساء القهوة والشاي والخمر وسهرات الزار والنرد والنراجيل، وجمع المال والنساء، والبحث عن مسراته وألعابه الصغيرة في أرجاء المنفى.

داخل الحرس الوطني في الجيش اكتسبت مناعة عضوية في الجري وتمارين القتال القريب، والاشتباك بالسلاح الأبيض، والرمي الغريزي، واغتيال الخصم بطريقة خاطفة وقذف القنابل اليدوية.

إلى جانب ذلك تعلمت كراهية أولئك العرب الذين كانوا يشيرون إلينا بأصابع الاتهام، ثم يبصقون وهم يرددون جهاراً أو استبطاناً: يا أولاد العاهرة بعتموها وجئتم تحتلوننا.

هؤلاء أنفسهم هم الذين باعونا في حرب الـ 48 وغدروا بنا، وها هم يحاولون إذلالنا وإهانتنا في الصباحات والمساءات.

لقد حفظتُ من تراث المسلمين وأحاديثهم عبارة تقول: العين بالعين والسن بالسن وديار الظالمين خراب.

وهذه العبارة وردت في توراتهم، وفي كتابهم المقدس الذي يؤرخ حروبهم من عهد يوشع الفاتح والسفاح حتى السبي وانقراض ممالكهم. كان القتل وإفناء الشعوب العربية ونعدوه هو القانون

السائد. هكذا يرسم الإصحاح الحادي عشر لسفر يوشع: «ثم رجع يوشع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك، وضربوا كل نفس بها بحدّ السيف وأبادوهم. ولم يبق نسمة إلا وأحرقوها بالنار. فأخذ يوشع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها إسرائيل لأنفسهم وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى أبادوهم ولم يبقوا نسمة».

وهكذا من بدء الزمن امتد بيننا ميراث الدم. افتتحوه من سيناء بعد التيه الأول ولما يغلق بعد، ولن يغلق إلا بإقامة مملكة داوود من نيل مصر إلى فرات العراق بعد هلاك الشعب الغريب.

الآن أنا بين قبور أهلي أواصل تدريباتي الروحية بعد أن اكتسبت مناعتي العضوية. أتكئ على جدار قبر أمي الغالية، وأرى من فتحات الأشجار النجوم الملألأة، وسماء عالية وفارغة.

لا أعتقد أنني غير سوي في هذه التأملات التي تبدو غير طبيعية.

لعلني أفكر في هذا العراء الغريب بمسألة تبدو ساذجة داهمتني بصيغة سؤال: هل أحيا أم أنقرض؟

وربما لم يكن هذا تحديداً ما أهدف إليه في مجرى الأسباب والحيثيات.

أعتقد أنني أدركت جوهر القانون الذي استنّته التوراة وورثه الذين لايعترفون بأية شريعة أخرى، وفيما أظن أن تلك الرؤيا المقدسة والمهووسة عن أرض الميعاد وعصور الأجداد القدامى تطرح علي سؤالاً صعباً: هل تموت أم تُستعبد؟

قبل عشرين عاماً ربما كان هذا هو السؤال الذي لم نستنبط جوابه ونفك رموزه، لكنه الآن وهو ينتقل من حالة الغموض واللغز

إلى مجال الفعل الدموي هو ذا يُلْقَى بيننا على شكل بحيرة من الدماء والأراضي المستباحة.

سأقول إذن، باستنتاج قانونهم، وجواباً على السؤال الفادح، وأنا غير آسف على ما سيحدث في قادمات الأيام، أنني سأموت.

ولكن قبل ذلك، سواء سُمح أمْ لم يُسمح، (علماً أنه ما عاد بيننا غير قانون الغاب الذي شرّعوه) سأضربهم أينما لقيتهم. سأطلق النار عليهم في البرّ والبحر، في البيت والمعسكر، في المعركة والشارع، في المقهى والخمارة، في الحقل والمصنع. سأطلق النار عليهم وأذبحهم حتى لو كانوا في أحضان إلههم يصلّون.

مرة سأقتلهم ثأراً للكولونيل محمد، وتسع مرات من أجل أخوتي وأبي، وآلاف المرات من أجل أمي البريئة والشهداء والمغدورين والبلاد التي سقطت بحدّ سيفهم عندما انكسفت شمسي، وبعد ذلك أموت راضياً.

3

كان ينبغي أن تسميني أمي علاء الدين بدلاً من نافذ علّان. وكان على علاء الدين هذا أن يطلب يد حبيبته من والدها فيقول له: إذا أحضرت لحبيبتك حليب البلابل من جزر واق الواق تكُنْ لك.

وحتى يصل علاء الدين إلى غابة البلابل في تلك الجزر النائية، كان عليه أن يجتاز المخاطر والدروب الثلاث الوعرة: درب الحريق، ودرب الغريق، ودرب السد الذاهب فيه لايُردّ. لقد كنت واقعاً في شباك هذه الأسطورة وفي مخاطر دروبها القاتلة:

درب الحريق كان اليهود.

ودرب الغريق كان أهلي.

ودرب السد كان العرب.

هكذا كنت مطوّقاً بالأعداء من كل الجهات، والحصار يكاد يسدّ المنافذ كلها في وجهي. عبر كل الأصقاع العربية كان الطغاة العرب قد نفوني كأجرب أو كقبيلة من الغجر إلى الأرياف وأحزمة المدن البعيدة، وهناك طوقوني بالأسلاك الشائكة وحراس البوليس وخنازير المخابرات.

وبفعل أمصال الذل والتشريد والجوع وضغط المنفى، كان قومي قد تمزقوا مستجدين الحماية والأمن، يتسولون كالشحاذين على أبواب وكالات الغوث وأبواب المكاتب والمؤسسات الحكومية.

لقد دجنهم الطغاة العرب فحوّلوهم إلى ما يشبه القطيع المحاصر داخل المخيمات. كثيرون هجّوا خارج بلاد العرب كفراً ويأساً وطلباً للعمل والمال، وآخرون اندمجوا في المؤسسات العربية وتحت خدمة الملوك والسلاطين والجنرالات، ولم تتورع أنفار منهم من الوقوع تحت سطوة العدو لخدمته بعد أن يئسوا وماتت ضمائرهم، فتحولوا إلى كلاب بوليسية يتبعون الأثر ويأتون العدو بالروائح.

وكان على من تبقى أن يعبر دروب علاء الدين الحارقة والمغرقة والمسدودة ليأتي بحليب البلابل المضرّج بالدم.

كنبات الصبَّار كانت شجرة الكراهية تنمو في أعماقي. شجرة مملوءة بعصارة الحياة الخضراء، لكن أشواكها البيضاء مسمومة كناب أفعى. وخلال التمارين الأولية لاستيضاح طريق النجوم الذي سأسير على هداه في الليل الحالك، ولحل معضلتي المستعصية، كنت أحاول جاهداً لتحقيق الانسجام الداخلي، التوازن العادل بين أعدائي، وبين انسجامي الروحي، وأنا أطلق هذه الحرائق التي تأكل أحشائي.

ماكنت أدري بدقة رجحان الخطأ والصواب. أي منهما على الآخر عبر الحادثة التي جرت في نادي ضباط عمان.

كانت خدمتي العسكرية في الحرس الوطني توشك على نهايتها، وكنت أجهز نفسي للتسريح والعودة إلى نابلس. كان اليوم يوم جمعة على ما أذكر وكنا نحتفل بمناسبة تسريح الدفعة التي سأكون واحداً منها. ضباط فلسطينيون وأردنيون بدأنا نشرب ونصخب ونثرثر حول كل شيء يعبر تحت أمواج الكحول.

سألني أحد الزملاء ماذا سأفعل بعد تسريحي فقلت بأنني سأعود إلى البيت وربما عدت للتدريس.

وسأل الضابط: أليس من الأفضل أن تبقى في الجيش؟ قلت: لا. أنا لاأحب الجندية.

الملازم الأردني سألني سؤالاً: أأنت سعيد يا ملازم نافذ لتسريحك؟ قلت: بالتأكيد. ومن لايفرح بخلاصه من الجندية!

وتدخل ضابط أردني برتبة نقيب: وخاصة عندما يكون المسرّح فلسطينياً! كنا نشرب الآن نخب الحياة المدنية أنا وزميلي الأول. استفزتني عبارة النقيب فقلت وأنا أضع كأسي: سيادة النقيب هل يمكن أن تشرح لنا الفرق في سعادة التسريح بين الفلسطيني والأردني؟

ورد بغطرسة: أنا مثلاً كشرق أردني سعيد أن أظل في خدمة سيدنا الملك إلى الأبد! ولم أجب. زممت شفتي. لمحت على جدار الصالون صورة كبيرة للملك ببزته العسكرية ونياشينه وابتسامته.

كان الآخرون يضحكون ويضربون الطاولات ويرفعون الأنخاب تحت أمواج الصخب والضحك الثمل.

امتعاضٌ عكِر استبد بي. شممت في الجو رائحة كريهة. ذلك الضابط اللعين أعرف عدائيته كما أعرف أنه ضابط أمن. كان الآن يقذف حجراً في البحيرة لكنني كظمتُ غيظي.

في مواجهتي كان هناك ضابط فلسطيني. سألني:

هاه. نافذ أراك ساهماً هل حوّمت حيفا فوق قلبك؟

زفرت بحرقة. وكشعاع خاطف على شاشة بعيدة عَبَر طائر أبيض كان سعيداً بطيرانه لكنه ما لبث أن هوى فوق البحر سابحاً بدمه. لست أدري كيف تدخل ضابط الأمن قائلاً باستفزاز: الحلم بالعودة إلى حيفا كالحلم بالوصول إلى المريخ. حيفا صارت يهودية ولن تعود.

وعندما سألته لماذا يقول ذلك أجاب: من يترك عنبه سائباً ينبغي ألا يسأل لماذا تأكله الثعالب. اليهود أحقّ بأرض باعها أهلها وهجروها.

- لكنك تعرف جيداً أننا لم نبعها. الذين باعوا هم غير

الفلسطينيين من أغنياء لبنان وسوريا والأردن. قلت ذلك وأنا أضغط انفجاري. وردّ بلؤم: أنتم كالنساء تبكون ملكاً مضاعاً لم تحافظوا عليه كما يحافظ الرجال.

وقلت وأنا أدرك أنني اخترقت الحدود: لكن الذي أضاع المُلْك هم الملوك ونحن لم نكن ملوكاً آنذاك.

وبعينين تنفثان شرراً وحقداً قال: أوضح ماذا تعني؟

كان الجو قد تكهرب، وحاول الضباط التدخل لكنني كنت قد فقدت توازني العقلي ودخلت منطقة الإعصار. قلت ويدي سائبة تحت الطاولة على مقبض مسدسي: عنيتُ يا ابن الزانية جدّ مليكك المفدّى ثم سيدك هذا ـ مشيراً إلى صورة الملك ـ الذي تفخر أن تكون عبداً له إلى أبد الدهر.

الذي حدث هو أن النادي اندفع مذعوراً تحت صدى الطلقات النارية التي لم تتحِ لضابط الأمن أن ينهض من مكانه.

خلال دقائق كانت الشرطة العسكرية والمباحث تطوق النادي.

اعتقلتني الشرطة بينما نقلت سيارة الاسعاف ضابط الأمن إلى غرفة العمليات الجراحية.

لا أعتقد أنني كنت مخطئاً. لقد حكمت عليّ المحكمة العسكرية بخمس سنوات بتهمة شتم الملك وإطلاق النار على ضابط من القوات المسلحة. غير أن ما فكرت فيه فيما بعد: إن كانت البداية من هنا فإلى أي مدى كنت عادلاً وأنا أجيب على الإهانة بالنار؟

وأنا ملقى في زنزانة السجن العسكري، كانت تؤرقني معادلة العربي المعادي واليهودي، وفي الوقت الذي كنت أتذكر فيه أهالي بلدة صور الفقراء الذين فتحوا صدورهم ومنازلهم للشعب المشرّد والتائه، كنت أرى هؤلاء الجلادين الذين تساووا مع الأعداء.

في السجن ضربوني. شتموا أهلي وبلادي، وقالوا بأننا

نستحق ما جرى لنا، وأننا نبصق في البئر الذي شربنا منه، ولولا الملك وشعبه لتحولنا إلى عبيد في مزارع اليهود ومنازلهم.

ومع أنني قلت لنفسي: إلى الجحيم. ذلك الخنزير الذي رميته ليس أكثر من جلاد حقود في جيش ملك مُباع، إلا أن المعضلة التي كنت واقعاً تحت تأثيرها، هي من أين تكسر الحلقة للنفاذ من الحصار؟ ثم عندما يتساوى الأخوة والأعداء على من تطلق النار؟

لابد أنني كنت تحت سطوة ريح الثارات القديمة التي ورثتها من ميراث حروب القبائل، وفي لحظات خارجة عن نطاق العقل، ربما كانت ردود الأفعال العضوية تتأثر بأمواج الفعل المنعكس الشرطي.

بعد أن ضُربت حتى الإدماء وداسوا وجهي بالأحذية وهم يشتمون البلاد التي ولدتني، رغبت لو كنت طليقاً لأقتلهم بلا ندم.

الآن أنا وحيد في الظلام التام. مُهان ومسحوق كحشرة. إنني بحاجة إلى ملايين الشهب لأستطيع أن أرى. ولابد أن حالتي هي حالة من وقع في فخ في أعماق غابة، وأعتقد أن مسألة النجاة والخروج لاتتجاوز نسبة الواحد بالألف، ولأنني كنت من الذين خسروا كل شيء وصاروا في مهب العواصف، راهنت على تلك النسبة الخاسرة.

منذ آلاف الأعوام قال شمشمون الفلسطيني وهو سجين: عليّ وعلى أعدائي يا ربّ. ثم هدم الهيكل عليه وعلى من فيه.

4

حين باغتتنا حرب الـ 67 كنت ما أزال في جناح الضباط بالسجن العسكري. جاءتنا الحرب كمفاجأة من خلال الراديو. سمحوا لنا خلال أيام القتال أن نخرج ونلتقي في ساحة السجن بشكل يومي ولساعات أطول. وسرت شائعات حول إطلاق سراح الضباط وإمكانية مشاركتهم في القتال.

كان العدو يركز على الجبهة المصرية لتحطيم القوة الرئيسية، بينما كانت جبهتا الأردن والجولان تناوشان إسرائيل.

داخل السجن كنا كالنمور المطوّقة في أقفاصها، وفي تلك اللحظات المهيبة والضاغطة تلاشى عداء الأخوة؛ لقد برزت من جديد الأنياب الوحشية والضارية للعدو البربري وهو يكتسح الأرض ويحيلها إلى حرائق وموت.

كانت هناك صرخة واحدة: أطلقوا سراحنا وأعطونا سلاحاً. نريد أن نموت في الجبهة. الراديو وحده كان النافذة التي نطل من خلالها على ما يجري، ومن خلاله كنا نَهْبَ المرارة ونحن نسمع أنباء تحطيم الطيران المصري الجاثي على أرض المطار، وبداية الهجوم والزحف على الجبهة الأردنية والسورية.

ومن أجنحة سجن الضباط وضباط الصف والجنود علَت الأصوات: أرسلونا إلى الجبهة لنموت. نحن لسنا خونة.

كان الحراس يأتون للتهدئة وإيقاف الشغب والغليان الذي

انطلقت نذره داخل السجن. وكان المساجين يطالبون بإلحاح: أرسلونا إلى الجبهة الآن وبعد الحرب أعيدوا الأحياء منا إلى السجن.

- ألا تسمحوا لنا أن نموت في سبيل بلادنا؟

- ألا يحق للسجين أن يحارب؟

- نحن وطنيون.

- أيها الخونة.

- متواطئون.

- يا للخنازير.

- خدم الملوك.

- الوطن في خطر.

- الموت أفضل من سجونكم أيها الوحوش.

وتحت رهبة الحرب كان الحراس فزعين لايدرون في غمرة الفوضى ماذا يجري وكيف يتصرفون، فالحرب أفلتت الأمور من عقالها، وشلّت قبضة الإرهاب والقمع. وبدأ الحراس يتوسلون:

الهدوء. رجاء الهدوء. إنما نحن مأمورون وقد رفعنا مطاليبكم للقيادة. الدنيا حرب كما ترون والطاسة ضائعة.

أسوأ ما يشعر به الجندي المدرب أن يكون غائباً عن المعركة وهي مشتعلة. وداخل السجن العسكري كان مئات الضباط والجنود يعانون وطأة المهانة والشعور بالنبذ بينما البلاد تحترق.

وفي ساحة السجن بلغ الاحتجاج أوجه عندما جاءتنا أخبار سقوط الجبهة المصرية، وبداية اقتحام الجبهة السورية المحصنة. تصاعدت الهتافات واللعنات، وتحول جنون العسكريين إلى تظاهرة هجمت نحو الأبواب الحديدية مهددة بتحطيمها.

كنا ندور ونصرخ في الباحة الضيقة كمأخوذين كسروا حاجز

الخوف ونحن نهتف بالحرية ومواصلة القتال وإطلاق سراحنا، ولكن الأسوار والأبواب المغلقة وبنادق الحراس كانت في مواجهتنا.

- كيف تسجنوننا والدنيا حرب؟

وانطلقت الهتافات:

- عبد الناصر هات. هات. حرية وانتصارات.

- الموت للعملاء أعداء الشعب والحرية.

- يا فلسطين جينالك تنشيل حمالك.

- عبد الناصر يا جمال يا مقدام عروبتنا.

- فلسطين بلادنا من زمن أجدادنا.

- ليا وليا يا بنيا ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيّا. هاتوا السلاح يا أخواني نحو الجبهات العربية.

تحت غمرة الانفعال هجمنا على الحرّاس الذين تراجعوا نحو الممرات والجدران. وعلت أصوات: السلاح لقتل العدو لا لقتل الشعب. هاتوا سلاحهم يا شباب ولاتمسوهم بسوء.

لم يطلق الحراس النار. سلموا أسلحتهم تحت وطأة الهجوم العنيف. أخذنا السلاح وأرغمناهم على فتح الأبواب.

حدث ذلك في اليوم الثاني عشر من حزيران، يوم نهاية الحرب.

5

بسقوط الضفة الغربية وغزة اكتمل سقوط فلسطين. دخل حلم هرتزل مجاله الواقعي، فاستحق أن يكون الأب الروحي لمجد إسرائيل الجديدة التي استُعيد مجدها القديم في القرن العشرين.

حين وصلت عينا بوس ليلاً لم تصدق زوجتي عينيها وهي تعانقني.

سألتني عن أشياء كثيرة وأنا صامت معظم الوقت. كنت متعباً من المسافات ووعورة الجبال والدروب التي قطعتها حتى وصلت.

أخيراً ها نحن معاً بعد غياب عامين. رائحتها كانت عبقة ولذيذة كرائحة ليل فلسطيني في صيف مزهر بالبرتقال.

انغمرنا. نسينا الحزن والآلام والغياب الطويل في غمرة دفء الجسد، وأنا أستنشق عبير جسدها كانت رائحة البلاد تطويني. نسيت الإنسان الذي كان مقذوفاً كنيزك خارج عن جاذبية الأرض.

عينا بوس وامرأتي كانتا حقيقيتين الآن، وها أنذا ما أزال حياً تحت أمواج روائحهما العابقة.

هيأت المرأة حماماً دافئاً. تحت الماء الساخن شعرت بالحياة ودفقها الحار. كنت منشرحاً وأنا أخرج من الحمام. كان هناك طعام لذيذ وخمر ونجاوى. شربت حتى الثمل وثرثرنا عن السجن والهزيمة والشوق وطفلنا النائم والأيام الجميلة التي سنعيشها معاً.

وكما لم يحدث في حياتنا مارسنا الجنس بعذوبة وشوق الأرض العطشى للماء.

ـ هل أطلقوا سراحك؟

ـ لا. هربنا.

ـ كيف؟

ـ شلّحنا الحراس بنادقهم وفتحنا باب السجن.

ـ وحرّاس الأسوار؟

ـ تبادلنا معهم النيران وسقط بعض الجرحى.

ـ كم كان عددكم؟

ـ لا أدري. كنّا بالمئات. ضباط وضباط صف وجنود.

ـ وماذا حدث للآخرين؟

ـ طشّوا في البراري والأودية والمخيمات. الدنيا فوضى وحرب. كل واحد مسؤول عن نفسه في هذه الأيام الفلتانة.

ـ لكن ألن يطلبوك كعسكري؟

ـ هناك آلاف المفقودين والضائعين، والملك وحاشيته مشغولون بالعرش والمملكة في هذه الأيام.

ـ هل ستهدأ وتعقل؟

ـ نامي. نامي. غداً نفكر بالمستقبل والعقل.

تعتقد هذه المرأة الساذجة والريفية أنني مهووس بحالة غريبة تسميها: البحث عن المتاعب. هي تريد أن تبني بيتها الصغير وأسرتها، أما أنا فترى فيَّ رجلاً جامحاً ينزع لتغيير الدنيا التي تسير بقضائها وقدرها.

كانت امرأة غفورة، مستكينة. مركز العالم في رأسها عينابوس

ودارها التي اعتنت بها وزينتها بالأشجار والورود، وزرعت في أرضها البطاطا والبصل والثوم والنعناع وحمَتها من الحيوانات الداشرة والطيور ودجاج الجيران.

حين كنت أحدثها عن الجراح والبلاد السابحة بدمائها، وعجز الناس ورائحة الأيام العطنة، كانت تحلم بأيام رغدة ورجل مقيم وبيت لاتزعزعه الرياح. هي خائفة من فقداني رغم قناعتها الداخلية أن ما أقوم به ليس سيئاً أو قذراً.

ـ لو الناس جميعاً مثلك لما احتججت لكن أنت وحدك يا نافذ تحمل الدنيا ومتاعبها على كتفيك.

ـ لا. لست وحدي يا وديعة. إنما الناس يلزمهم وقت ليفيقوا.

ـ أنت تتعذب والناس راضون وسعداء بحياتهم.

ـ غير راضين. هم مغلوبون على أمرهم.

كانت تصمت في منتصف الحوار. إنها تتوجس من غضبي، ومن إحساسها الدوني بالفرق بين مستوى رجل متعلم ويحمل شهادة عالية، وامرأة خرجت من المدرسة ولم تتجاوز الصف الخامس الابتدائي.

ـ من الآن فصاعداً سوف لن تتدخلي في شؤوني. أنا أعرف ماذا أفعل. لن ينقصك شيء أما السياسة فاقفلي أذنيك عنها وصوني لسانك.

منذ أسبوع وأنا أستلقي بين قبور أهلي. بين الأضرحة حفرت حفرة وغطيتها بأغصان الشجر. زوجتي كانت تأتيني بالطعام والقهوة والشاي. أحياناً تسألني بخوف عن حالتي فلا أجيب. تعتقد أنني مصاب بحالة قريبة من الجنون. في الليل على ضوء فانوس الكاز تجلس قربي صامتة وأنا ممدد فوق بطانية، أنظر من فتحات الأغصان إلى النجوم البعيدة. حيث أرى عبرانها وهي تنساب

وأحياناً أسمع شهقاتها. وذات ليلة أوضحتُ لها بأن هذا الوضع حالة أمنية خوف المداهمة، وينبغي ألا يعرف الجيران وأهل القرية بوجودي، وعليها ألا تقلق لأن الحالة مؤقتة وعما قريب سأعود إلى حياتي الطبيعية.

غير أنني في حقيقة الأمر كنت أعبر وضعاً غريباً. كنت في حالة ذهول وشرود كأنني خارج العالم. أهذي وأتحدث مع القبور وأحس أمواجاً من العجز والعزلة تغمرني. هوذا الموت يطوقني من كل الجهات وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً. لاأعرف ماذا سأصنع بعد هذا الدمار الذي حدث. الدمار الذي اجتاح كإعصار هذه البلاد الملعونة فزعزع توازن العقل وأطار الصواب.

الأيام الستة تساوت مع أيام حيفا وما تلاها. وها هم الذين قال عنهم نبيهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس يسقطون تحت حوافر الأعداء الذين ما كانت الشمس تغيب عن امبراطوريتهم، ها هم يتحولون شتاتاً من العبيد والقتلى والجرحى المشوهين والندابين.

سبايا نبوخذ نصر وعبيد بابل أخذوهم أخذ عزيز مقتدر، وساقوهم بالرصاص والقنابل إلى المقابر والكهوف والذلّ الأبدي.

تمتد أصابعي إلى جدار الحفرة فأشعر ببرودتها وهشاشة التراب. أضغطه فيتفتت متحوّلاً إلى ما يشبه الرمل بين أصابعي. أفكر بشعب الصحراء الذي سيعاد إلى صحاريه ومضاربه وأزمنته الرعوية. أنكون فعلاً شعباً من الرعاة لايستحق غير الصحارى؟ أم أن العالم يثأر من هؤلاء الذين دقت حوافر خيلهم أبواب باريس وغرناطة؟ أم أن صليبيي القرن العشرين يعودون تحت راية داوود ليقذفوا بالأعراب إلى البوادي والقفار التي جاؤوا منها؟

لابد أنني ملتاث وواقع تحت سطوة الهزيمة والعار. العلامات القديمة ووشم سنوات القهر الداخلي والكبت والاستبداد والجوع والخيانة والكذب والعزلة، تطفو الآن خارجة من أعماق المستنقع شبيه أوراق الشجر الأصفر المتساقط تحت هذه الريح الصرصر.

بدأت كوابيس مخيفة ودنيئة تنتابني. كوابيس اغتصاب وعُري. أكثر ما كان يجرحني رؤيا أمي وهم يخرجونها من القبر عارية ثم يجبرونني تحت التهديد بالقتل على اغتصابها.

وفي لحظات خارجة عن نطاق التفسير والتوازن أرى نفسي عارياً في فضاءات بعيدة وأراضٍ مهجورة، مبلَّلاً بالبول والغائط. أبحث عن ماء لأغتسل فلا أجد غير الغبار أو الوحل. ثم لا ألبث أن أرى جسدي غائصاً في مستنقعات ونفايات. أهيم في البراري باحثاً عن صيد ومعي بندقية وإذ أرى طريدة وأهمّ بإطلاق النار تتحول البندقية إلى قصبة مجوّفة. أضغط فلا تنطلق. أنهض على صرخاتي في الحلم فأفاجأ بالليل الجاثم ووحشة العراء القفر.

في الصباحات وأنا أتناول قهوتي وأدخن تمرّ على شاشة الجنون والعقل المضطرب قوافل القبائل التي انتهى زمانها. النفوس التي حُقنت بأمصال المهانة والموت فانكسرت وتراكم الرماد فوق وهجها القديم.

- لابد أن سيفنا سقط وما من أحد ينحني ليلتقطه، وشمسنا انكسفت. وها هوذا زمانهم يشرق تحت وهج هذه الشمس الفولاذية.

مرّ الأسبوع الثاني وأنا مازلت بين هذه المقابر. أخرج في الصباحات نحو الهضاب وشعاب الأودية موغلاً داخل الأحراش. أتذكر سحابات الطفولة العابرة بين هذه الأدغال. الطيور والصخر وأشجار البطم والزعرور والزعتر وحقول الزيتون والمغاور القديمة. أحبها الآن أكثر مما مضى وأشعر بالرغبة الجامحة للانصهار فيها. تحت الندى والشروق البكر للشمس تبدو لي خضراء وصلبة ونابضة بالحياة. أجلس على مطلات الأودية فوق هذه الصخور الرمادية الرطبة، وفي مواجهتي السفوح والقرى البيضاء، وهذه الأشعة الدافئة المنسابة إلى مسامّي ومسامّ الصخر والشجر والأرض. هذه هي البلاد العذراء ملء العين والقلب أسمع أصداءها

الداوية في دمي. هنا ولدتُ. دروبها أكلت قدمي وأنا أطارد الطيور، ومن شمسها اللافحة انكوى جلدي واسمرّ. بعصارة خضارها وفواكهها تغذت شراييني، وتحت ظلال شجرها ومنازلها سمعت أغاني الرعاة والمنشدين وأغاني الأم التي توارت. البلاد الجميلة، الدافقة، المضاءة، الخصبة، الخضراء على مدى الأزمنة. أرض الآباء والأجداد. أعود الآن فيها غريباً بعد أن سقطت أشجارها ومنازلها وهضابها وشمسها وأغانيها تحت حدّ السيف.

في المساءات أستلقي وأقرأ وأفكر بكيفية الخروج من هذه الحالة الكهفية. حالة الشلل وحسّ التأنيب والشعور بالدونية. تحدثني زوجتي فلا أشعر برغبة الحوار. تبدو الأشياء كالجثث أو كهذه القبور الجامدة. كيف تكون حالة الرماد والرمل ورائحة غبار التبن وعطن الأثاث القديم؟ أنا كنت داخل هذه الحالة التي لاتشع بغير الموت والفساد.

فيما مضى كان العار يجلل الفلسطيني، الآن العار تعمم حتى صار عربياً. بلاد بشرها بعدد رمل البحار والنمل! بلاد كان خليفتها في ماضي الدهور يخاطب السحابة: أينما رحلت يأتيني خراجكِ. هي ذي سحائبها وملوكها وخلفاؤها وآلهتها وصلواتها وأكاذيبها وغطرستها وأكاذيبها وحضارتها القديمة، تتحوّل إلى مستحاثات.

ومع ذلك فأنا لست حزيناً فيما أظن. فقط أتساوى مع الأرض. في الأماسي أشم رائحتها وأمرغ وجهي فوق هذا التراب الغضاري. ولأنني وحيد وعاجز أتساءل إن كنت جديراً بهذه الأرض وهذه الروائح التي تهب عليّ من الشجر الزهور والمرأة الجاثية قربي.

لكن الغزاة الغرباء تقدموا كثيراً في شرايين الأرض، وتقدموا أكثر في حقول الدم ومسامات القلب.

وها أنذا، في الوقت الغارب، نهب فقدان التوازن، مطوّق بجموع القتلة من كل حدب وصوب، تفترسني الكوابيس والأشعة التي

تعمي البصر والبصيرة فيلتبس علي الأمر، ويختلط القتلة تحت هذه الشموس التي تتشظى تحت عيني.

أعتقد أن البحر الذي كان ساجياً ورائقاً فيما مضى، قد اعتكر. صخرة ضخمة سقطت وغارت في الأعماق فأخرج المستنقع من أحشائه الجراثيم والأوشال. الاستكانة والكذب، العجز والخيانة والاغتصاب والاستبداد والأنانية والصلوات والحقد البدوي، هذه الجراثيم كلها خرجت من أعماق الوحل وطفت على وجه المستنقع.

في نهاية الأسبوعين هزل جسدي. تحولت إلى إنسان عصابي يثور لأتفه الأسباب. تلك الزوجة المسكينة وحدها كانت تدفع ضريبة انهياراتي. كانت تلازمني وتحاول بكل نبلها الإنساني التخفيف من حالتي. تهيء الشاي والزهورات وتحضر الماء الساخن وتنام قربي، تبكي دموعاً حارّة عندما تراني مريضاً أو عصابياً.

بعد أن أهدأ تحدثني عن ضرورة التماسك، وتذكرني بصلابتي القديمة، وأحلامنا عن بناء حياة جميلة هادئة، وعن الأطفال الكثيرين الذين سننجبهم حتى لاينقرض النسل الفلسطيني.

إنها تشجعني: يكفي ما أصابنا يا نافذ. إذا أصابك مكروه سأموت. أنت سندي وحياتي والبلاد بحاجة إليك. فكر بالمستقبل ياعزيزي. لقد حدثتني عن خالك الكولونيل وكيف وضع يده على كتفك وهو على باب الموت. أبهذه الحالة التي أنت فيها ستكمل طريقه التي بدأها؟ انظر حولك. إلى هذه القبور التي صرت كأنك واحد منها. شفْ حالتنا في كل مكان من بلاد فلسطين. صرنا شعباً من الغجر والبدو الرحّل. ترى من لنا غير أمثالك من الرجال الذين يشيلون الحمل الثقيل في أيام الضيق؟

وكنت أواسيها وأعِدها بأنني سأعود عما قريب إلى حالتي الطبيعية، وما تراه ليس أكثر من صدمة عابرة لن تطول.

كيف أشرح لامرأة عادية، نصف متعلمة، في رأسها ثلاث غرف: غرفة للأثاث والمطبخ، وغرفة للنوم والأطفال، وغرفة للزوج

الحارس والدافئ، بأن الريح التي هبت أفقدت الناس معرفة الجهات، وأن هؤلاء الأعراب الذين داهمهم الذئب في غفلة النوم لايصلحون إلا للموت والافتراس.

ثم كيف أوضح لها بأن المقهورين والمعزولين والجياع والمسروقة أوطانهم والسجناء، لم يخوضوا الحرب، وأن هذه الحرب اللعينة كانت حرب الجنرالات والملوك والخنازير الذين شرّدونا وامتصوا دماءنا منذ عشرات السنوات، هؤلاء الذين كانوا يستمتعون بخيرات الأرض ويتقاضون ضرائب الشعب ثم يعتقلونه ويطلقون عليه النار بلا محاكمات ويزجّونه في غياهب المعتقلات.

أولئك الذين باعونا في الـ 48 هي ذي سلالتهم الجديدة تتابع وفاءها للميراث القديم. الزلزال الذي حدث زعزع الجذور، وعرّى الصخر، وهدم الأساسات الواهية المبنية على الرمل، وجميع القناعات القديمة بدءاً من الآلهة حتى الأسرة والدولة قد تمرّغت في الوحل. لم أعرف كيف أشرح لها ذلك، لكنني صرخت في وجهها أن تكفَ عن الأسئلة والترّهات.

في هذا الصباح المنعش جاءت زوجتي بالطعام. جلسنا معاً وبدأنا نأكل. كنت منشرحاً وأنا أفكر بالخروج من حالتي التي شارفت حافتها المريرة والتطهيرية. لقد بدا لي استمرار هذا الوضع سخيفاً، ولابد أن يؤدي إلى الجنون أو الانتحار في النهاية. كان لابد من رؤية الضوء في هذا الظلام للخروج من سطوة الكابوس الذي بدا كأنه سدّ منافذ الروح. قالت زوجتي: أنت تبدو بصحة جيدة هذا اليوم. ولم أجب.

وتابعتْ: أملي أن أراك كما كنت في سالف الأيام. استمرّ الصمت.

وقالت: الناس في القرية بدأت تتحدث عن الفدائيين. وتوقفت اللقمة في يدي: إيه. ماذا يعني ذلك؟

قالت: الشباب تحركوا وأنت...

لم تكمل عبارتها لأن كفيَ صفعتها. مرة. ومرّة. ومرّة. ضربتها بعنف وشراسة ثم قذفتُ الطعام بوجهها. في غمرة هيجاني صرختْ بي: ولكن أنا لست عدوكَ. هم الذين أهانوك وليس أنا!

شيء ما في أعماقي ارتجف. برق خاطف أضاء وهزني. تحت الضوء رأيت دموع المرأة وآثار الصفعات وعجزي. كانت أمامي ترتعش وتشهق.

ـ أوه. ياللعنة!

لقد وصلت الحماقة حدودها المؤذية، وها أنت تثأر من نفسك في أرض الدمار والحرائق التي اجتاحتك. وفي الذاكرة مرت حادثة أبي وأمي في حيفا.

لم يكن الأمر مؤلماً بقدر ما كان مبتذلاً ومهيناً. هل أفصح العجز عن سريرته بتهشيم وجه المرأة البريئة التي ظلت وفية لك خلال سنوات الجوع والسجن؟ شيء ما بكى في داخلي بصمت.

تقدمت من زوجتي وأخذتها بين ذراعي. ضغطتها إلى صدري ومسحت دموعها: سامحيني يا حبيبتي. ما قصدت الإساءة لك. أمر تافه حدث. اغفري لي.

وضعت رأسها في حضني. دموعها الحارّة انسابت فوق صدري. كنا نبكي الآن معاً. بكيت بغزارة بكائي في ساحة جامع عمر بن الخطاب على أمي وأهلي المفقودين.

تلك الليلة كانت آخر الليالي في حوش القبور. سقط زمن وابتدأ زمن آخر. في صباح اليوم الثاني هدمت الكوخ وسوّيت الحفرة بالأرض ثم قبّلت الأضرحة، واتجهت نحو البيت.

لقد اتخذت قراراً بمواجهة الرياح.

الفصل الثالث

زمن الصدمة والموت

1

عينا بوس.

القرية الصغيرة الآن والمليئة بالآثار، والتي تبعد عن نابلس عشرين كيلومتراً، والمغطاة بأشجار السنديان والزيتون والكرمة والعرعار واللوز.

هذه التي كانت جزءاً من مملكة قديمة من ممالك الكنعانيين، بناها الملك عين يابوس في القرن العاشر قبل الميلاد، ثم دمّرها سرجون الثاني الآشوري إبان السبي الأول في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد؛ الأرض الخصبة والخضراء على مدى الفصول، دخلت الآن تاريخَ احتلالها ودمارها الجديد.

ها أنذا أغادرها بعد شهرين من الاعتكاف والغياب عن حركة العالم، إلى نابلس.

إنني أرى الدنيا كرجل خارج من كهف مكث فيه دهراً.

البشر والسيارات والحركة والأصوات. كل شيء يبدو كما هو، كما كان. ثمة جنود الاحتلال يتجولون في الشوارع بأسلحتهم الرشاشة. إنهم متأهبون ومنتشون ببسماتهم وبضربات أحذيتهم العسكرية فوق حجارة الأرصفة.

الناس في المتاجر تشتري وتساوم، والمقاهي مكتظة، وطلاب المدارس يتأبطون كتبهم وكراساتهم باتجاه المدارس، والفلاحون

يسرعون نحو سوق الخضار والفواكه ليبيعوا محاصيلهم، والنساء أفواج أمام حوانيت النوفوتيه.

- البلاد بخير إذن وربما كنت وحدي المُصاب. هجست بذلك وأنا أتجه نحو الحوانيت لأشتري ثياباً ومؤونة للبيت وبعض الأدوات الطبية.

كان قراري في البدء أن أشتغل في الطب العربي لمداواة الشعب في الأرياف. جدّي كان طبيباً عربياً يستخدم الأعشاب، وفي طفولتي، عندما كنت أعود من حيفا، كان ذلك الجد يأخذني إلى الجبال والغابات ويعرفني على الأعشاب النافعة لأمراض المعدة والكبد والكولون والتيفوئيد. وبعد أن مات أوصى زوجته أن يكون مختبره في القبو الأرضي من بيته لنافذ إذا عاد يوماً إلى عينا بوس. خلال فترة اعتكافي وانقطاعي عن العالم فكرت بمختبر جدي البدائي، وبتطوير وسائله الأولية من خلال دراستي لعلم النفس في جامعة بغداد، وهكذا قررت شراء مجهر وأدوات حديثة لمخبر تجارب وتحليلات ووسائل تقطير وترشيح.

وفي فترة السجن والاعتكاف استطعت قراءة الكثير من الكتب النفسية وعلوم الطبيعة بالعربية والانكليزية، كما درست أساليب وطرق التنويم المغناطيسي. كتب لفرويد ويونغ وبافلوف ورايش وابن سينا والرازي والشذور الذهبية لأحد الأطباء الأتراك.

ها أنذا الآن في طريقي إلى القرية، وهذه المشاريع تتماوج في رأسي وأنا غير موقن بعد من فعالية السبيل الذي أختاره. أفكاري تهجس بأمور أخرى أكثر جدوى وتأثيراً، وعندما نطقت زوجتي بأخبار أولئك الذين اختاروا طريق النار والموت، لم أكن بعيداً عن تلك النار التي تحرقني وأتلظى تحت لهيبها. عبر لحظة وأنا في شوارع نابلس خامرتني فكرة مجنونة: أن أهاجم إحدى دوريات العدو بخطف رشاش أحد أفرادها وإبادة الدورية في وضح النهار.

كان الأمر ممكناً لكن النجاة كانت مستحيلة، وكان التنفيذ يساوي الانتحار الفردي.

وهكذا تابعت سيري بعيداً عن الدورية لأوقف هذا الغيظ المشتعل. كنت أضرب جدران الأبنية وأسحج أسناني وأتنفس بقوة لأزيح الضغط الداخلي. وأنا أرفع رأسي نحو النوافذ العالية والسماء فاجأني مقر الحاكم العسكري. أغمضت عيني وقلت: الآن عليك أن تهدأ وتعقل يا ولد. لقد لزمهم أكثر من نصف قرن وهم يخططون لاجتياحها. بالسيف أُخذت وبالسيف وحده تعود والزمن هو الذي يصقل السيف.

وأنا أنعطف نحو السوق المركزية للمدينة داهمتني فكرة: وحدك ستكون كالشجرة في مهب الإعصار، وإذا لم ينهض هذا الشجر النائم فلتذهب الغابة إلى النار.

أخترت الآن طريق العمل الطبي. هذا سيفسح أمامي مجالاً واسعاً لتقديم العون للشعب الذي هوى في فراغ الهاوية، بعد أن تخلت عنه آلهة السماء الزرقاء والأرض الرخوة.

كنا، في هذه الغمرة، مهانين، وجائعين، ومرضى، ومنذورين للذبح، قذفت بنا القوة المادية الغاشمة والعقل الذري خارج التاريخ.

وكان الشعب المُشَظَّى والمسلوب والمغترب، مايزال أسير الخُرافة والقدر والألواح السماوية. يتداوى في أحوال المرض بالرقى والتمائم والكتابة الدينية على البيض، ويقدم النذور والأضاحي للأولياء الصالحين، يقف فقراؤه المساكين تحت الحرّ والمطر ساعات وأياماً على أبواب المستوصفات والمشافي ليحصل على علبة أسبرين أو زجاجة ميكرو كروم أو إبرة بنسلين، ثم يذهب ويستلقي على فراشه ليموت بعد ساعة أو يوم أو شهر أو عام.

بعد شهرين سألتني زوجتي: أخيراً ماذا قررت؟ وإذ شرحت لها بأن الشعب يحتاج المعالجة والدواء، وأنني اكتشفت من خلال تجوالي في البراري أعشاباً ضد أمراض الملاريا والتيفوئيد

وأوجاع الكولون والإسهال، شعرت المرأة بالراحة. ها أنذا أعود إنساناً طبيعياً، هادئاً ومستقراً ينحصر اهتمامه بأعمال إنسانية بعيدة عن السياسة ومصائبها.

منذ الصباح أتجول بين قرى بيت فوريك وجمّاعين وعين البيضا وعزموط وكفر قدوم وطوباس. والقرى والمزارع الأخرى أداوي الشعب مجاناً، وخلال تجوالي أتعرف على أحوال الشعب وآلامه والمصاعب التي تنغّص حياته. كانت سعادتي بلا حدود وأنا أداوي المرضى وأواسيهم ثم أسهر وأنام في تلك القرى، وخلال سهراتنا ولقاءاتنا نتحدث في أمور الطب والعلم والتقدم العقلي الذي وصلت إليه البشرية، بينما مانزال نحن في مؤخرة الدنيا وظلام القرون القديمة. كنت أصطدم أبداً بجدران من الإسمنت المسلح. جدران بناها الإيمان الغيبي وحصّنها في وجه غزوات العلم والمنطق، ومع ذلك كنت أكابر ضد هذا الحائط في محاولة إحداث ثقب يخرقه رغم التُهم التي كانت ترشقني بالدهرية والإلحاد.

حين كانت الأحاديث والحوارات تصل إلى أبواب السياسة، يرتدي الجدال طابعاً عنيفاً واتهامياً وساذجاً، حول الضعف والقوة والبطولات الفردية وتخلي العرب عن فلسطين والخيانات ووقوف الله مع اليهود ضد العرب. كنا ننتقل إلى أسباب نصرهم وهزيمتنا خلال ثلاث حروب، وأننا منذ الـ 36 حتى الآن نقاتلهم ونخسر، بينما نحن أكثر عدداً منهم وأكثر شجاعة وإقداماً.

وإذا كانت الآراء تتفق حول دعم المستعمرين لهم وقلة الأسلحة والذخائر وانقساماتنا مقابل وحدتهم وتماسكهم، كنا نختلف حول الأمور العقلية والاجتماعية والنفسية.

في قرارة أعماقهم كانت راسخة الطفولة العقلية المؤمنة بالأساطير والأوهام وأشباح السماء. حالة البداوة القديمة المتناسخة فينا والتي تستعيد عصور الجاهلية الأولى أو زمن الخلفاء والرسول.

عندما ألمحت إلى الأزمنة الحديثة وعصور الذرة والعالم الذي صعد إلى القمر بينما ما نزال نرى فيه كوكباً مقدساً، قال أحد الموجودين بأن اليهود مؤمنون بدينهم وأنبيائهم. وقلت: ولكن اليهود وحَّدوا بين الدين والوطن بينما نحن مانزال نفصل الدين عن الوطن ونحوله إلى طقوس وعبادات. لقد نسينا إسلام السياسة وأمسكنا بإسلام الشريعة. أنبياء اليهود كانوا ملوكاً، وإلههم يهوه جسّدوه في صورة إنسان قاسٍ ومتوحش يكره كل شعوب الدنيا عدا اليهود شعب الله المختار. اليهود كان دينهم مادياً دمج بين حياة الشعب وحروبه وطقوسه الروحية لأن الكهنة هم الذين وضعوا الدين ولم يكن وحياً، وهم الآن يرفعونه راية غزو سياسي لبلادنا.

بيت مختار قريتنا وربعته الواسعة ملتقى السهارى بعد أن يهبط المساء. على الأرض المفروشة بالبُسط وحصر القش وجلود الخراف يجلس الأهالي. يدخنون ويشربون الزوفا والشاي والميرمية ويثرثرون في أمور الدنيا والبلاد. عندما يدخل الشيخ أحمد القطناني إمام الضيعة ينهض الحاضرون تكريماً وإجلالاً له. شيخ شاب دون الأربعين، لحيته سوداء ونظراته ثاقبة، جاء إلى القرية منذ عامين في ظروف غامضة هارباً من جور اليهود وملاحقتهم لعائلته المتدينة في «سفارين» التابعة لقضاء طول كرم، كما يقول. يتحدث الشيخ القطناني عن أجداده علماء الحنابلة ومنهم محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، وشمس الدين أبو العون، اللذين كانا من علماء الحديث والأصول والأدب في القرن الثاني عشر الهجري. جده أبو العون درس وأفتى بنابلس وفيها توفي. وقد انتقل وهو فتى مع عائلته وأبيه الشيخ إلى قرية «فلامة» التابعة لمدينة قلقيلية، ثم يروي عن بطولة القرية الصغيرة في العام 1951 عندما تعرضت لهجوم يهودي قدر عدد أفراده بـ «130» جندياً، هاجموا القرية بالبنادق والرشاشات والألغام، واستمر الهجوم أربع ساعات متواصلة منّي فيها العدو بالفشل بعد أن استشهد مختار القرية وجرح بعض أبنائها، بعد أن دافع الحرس الوطني والأهالي

عن القرية ببسالة نادرة وردّوا المعتدين على أعقابهم، وكان هو ووالده الذي جرح بين المدافعين عن القرية. ومع أن ذلك الشيخ الذي يبدو ورعاً وتقياً كان يدافع عن فلسطين ويندد باغتصاب اليهود لأرض المسيح ومحمد، إلا أنه كان في خطبة الجمعة وسهرات الليل يدعو للحياد عن الأمور السياسية والأحزاب التي تورط الشعب وتؤدي إلى المهالك، وما كان ليترك مناسبة إلّا ويتهم فيها الدهريين والملحدين والشيوعيين، عملاء موسكو، بأنهم سبب البلاء، هؤلاء الذين جاؤوا بالبدع الملحدة التي تحل الإنسان محل الإله وتعيد أصل الكون للطبيعة والمادة.

حين كنا نلتقي ومعي حقيبة الأدوية التي أحملها في أسفاري بين القرى، كان يوقفني ويسألني عما أحمل في حقيبتي فأرد بأنها مليئة بالأدوية للمرضى، وبذكاء مستبطن بخبث يفاجئني عما أحمل في صدري، فأقول وأنا مدرك ما يرمي إليه: فلسطين وآلامها. فيقول وكأنه يعرف جوابي سلفاً: إذا لم يكن هناك إيمان فإن الأدوية يا نافذ لاتفيد ولاتنفع وفلسطين لاتعود.

وإذ أسأله عن هذا الإيمان فيجيب بورع: إيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والثواب والعقاب.

وفي السهرات ومجالس القوم النهارية كان لاينى يبشّر، وهو يسبح بسبحته الطويلة السوداء: قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم. يا أبنائي. إن الأعراب فسدت في الأرض والمفسدون لهم النار. قل إن إلهكم إله واحد لاشريك له. ويتابع: إن الله جل جلاله لايفرق بين عربي ويهودي وأعجمي لأنه بعيد عن الهوى. لافرق في الدين بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. فالإسلام جاء للناس كافة، ونحن المسلمين زُغْنا عن طريق الهدى يوم تركنا الدين واتبعنا الدنيا وملذاتها وحماقاتها. يقول رسول الله: إنما الأعمال بالنّيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله وروسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه. انظروا إلى ديار المسلمين اليوم وقارنوا

بينها وبين الديار الأولى. لقد انتشر الفساد في النساء والخمر والميسر والنميمة والتفرقة وعلوم الدهرية والإلحاد. كيف يكون الله مع قوم ما عادوا مع نفوسهم، وكيف يذكر الله قوماً ما عادوا يذكرون الله؟

عندما كنت أستمع إليه وهو محاط بالأهالي من بسطاء الشعب المؤمنين بما يقول، والمدركين قصورهم الديني أمام علمه وما يحفظ من السور والأحاديث، كنت أحس بالحرج وأنا أحاوره في هذه البقعة الخطيرة والمحرقة، حيث يبدو هو محمياً ومحصناً بألف وأربعمائة عام من اليقين المطلق، بينما أخوض معركة خاسرة ليس معي فيها إلا نور باهت من العقل الذي لم يسطع نوره بعد وينتشر.

كنت أخاطبه بسيدي وأنا أوضّح بتوجس بأن علينا استعادة سيرة الأوائل الذين حملوا الدين والسيف، أولئك الذين حرروا بلاد العرب من الرومان والفرس وجمعوا المسلمين كتلة واحدة في وجه أعدائهم.

في أعماقي كان هناك رفض للأفكار الإنهزامية والمحايدة التي يبثّها الشيخ، والتي تستغل سذاجة وجهل وغريزة الشعب. ولذا عندما كنت أقول له: ولكن يا سيدي أنت أدرى بأننا هُزمنا بالعقل والعلم. وسنظل نهزم ما دمنا نقاتل قتال الجاهلية.

ينتفض صارخاً: العلم بدأ بالمسلمين وانتهى بهم يا ولدي. الأقوام الأخرى كانت ترسف في ظلام العصور الوسطى والجهل عندما كان المسلمون يشعّون على الدنيا بنور العلم.

وأقول للشيخ: ولكنك تعني علوم الدين.

فيعلو صوته: وعلوم الدنيا أيضاً. من المسلمين خرج ابن سينا والخوارزمي وابن حنبل والرازي والفارابي وابن رشد والغزالي والأشعري وابن تيمية.

أقول بهدوء مصطنع: أنت يا سيدي عالم جليل وتعرف أن الذي بقي هو الغزالي والأشعري وابن تيميه وهؤلاء علماء دين ومدهم لم

نرث غير الطقوس والعبادات والبحث في صفات الله وتجلياته اللامحدودة.

وإذ يسألني الشيخ بامتعاض: ماذا تعني؟

أقول: ماذا ورثنا من هؤلاء؟ لا وطن ولا فلسطين ولا من يحزنون. صلاة وصوم وقراءة كتاب الله ودعوات وترتيل آيات في مناسبات الحزن والموت وعقود الزواج والخلافات الشخصية ونوائب الدهر.

يمتعض الشيخ القطناني من دهرياتي وثقافتي الطبيعية والمادية، ولكي يهرب من الحوار، يغمز من جانبي بأن الملحدين والمشركين لايمكن أن يحرروا فلسطين أو القدس الشريف.

يبدو مهتاجاً وهو يتهم الشيوعيين بأنهم سبب خراب الإسلام وضياع فلسطين، وأن ستالين اعترف بتقسيم فلسطين بعد أن عقد صلحاً مع المحور، ويصرخ بغضب: ليعرف القاصي والداني في بلادنا أن الدين والشيوعية لايتعايشان. وفي غمرة هياجه راح يُلمح إلى أن العمليات الفدائية ليست أكثر من عمليات انتحارية، تقوم بها مجموعة من الشباب الأهوج المورِّط للشعب البريء. ثم بدأ الإشادة بمواقف المفتي الحاج أمين الحسيني الذي كان عدواً للإنكليز واليهود.

على غير توقع يجيء الاعتراض عليه من برهوم الصقر راعي أغنام الضيعة: اسمع يا شيخ أحمد! والله لولا عبد الله والمفتي ما ضاعت فلسطين. بشرفي ما حكاه الدكتور نافذ عين العقل. نحنا والله ما فينا غير الحكي. منحكي عن الرسول والخلفاء وفعلنا غير فعلهم. أي والله، والله، واحد مثل أبو ذر الغفاري أو سيدنا عمر أو علي يساوي مليون رجل مثل رجال زماننا. خلصنا بقا يا شيخ أحمد من هالخلط!

يباغَت الشيخ من نبرة برهوم الراعي فينبر في وجهه: ولَك أنت يا غلام يا برهوم. يا بهيم. ماذا تفقه في الدين والسياسة. تعلمتها

وراء النعجات؟ والله ما عاد ناقصنا غير الرعيان يعلموننا أمور الدين والدنيا. عندما يتكلم العلماء يسكت الجهَلَة والحمير. هل سمعت يا ولد البعران؟

- لا. ما سمعت! شو أنت رجل علم ولاّ رئيس دولة أو حاكم عسكري!

ويصرخ المختار في وجهه: اخرس ولَكْ برهوم. هادا الشيخ أحمد وحقه علينا جميعاً. عيب هادا الكلام يا ولد.

سعدون فياض معلم المدرسة يدافع عن موقف الراعي، منتقداً موقف الشيخ وقسوته، مركّزاً الهجوم على الملك عبد الله والمفتي وتحالفه مع الألمان وطموحاته في السيطرة والزعامة: الذي أوصلنا إلى ما نحن فيه هو الانقسام ورغبة كل زعيم أن تكون كلمته هي العليا. في هذه البلاد كل إنسان رأس كبير ومأساتنا مأساة قيادة تجمع الشعب ويحبها الناس. الشعب ضائع والراعي مفقود.

يحوقل الشيخ أحمد ويبسمل ثم ينعقد حاجباه غضباً، ويبدأ بتمسيد ومسح لحيته بعصبية. يحسّ بأن العامة تطاولت عليه هو الجليل المبجل والذي لاينطق إلا بالحق فيتململ في جلسته. يقول وهو يهمّ بالنهوض: يا أهل عينا بوس. أنا عارف أن الشيطان يوسوس بينكم، والمخرب الأكبر في هذه البلاد سيقودكم إلى الدمار. كما أعرف أنه لاكرامة لنبي في أرضه، ولكنني أقول لكم إذا لم تتوبوا وتبتعدوا عن المشاكل ووسوسات الشياطين والأبالسة فلا تلوموا إلا أنفسكم. إن الله ورسوله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وفي هذه الضيعة لا أرى إلا الزيغ ونذر الشر والابتعاد عن الصراط المستقيم. قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، وقد أعذر من أنذر.

2

وفي الوقت الذي كان الشعب فيه مقهوراً وغافلاً، وعائماً فوق الغمر، وكهَّانه خارج التاريخ، كان المنتصرون الأعداء يمسكون بأعمدة التاريخ والحق الإلهي الذي صاغه كهنة أورشليم وقادتها العسكريون من إسمنت الكذب والغطرسة: إذا كنا نملك الكتاب المقدس، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس فإن علينا أن نمتلك أرض الكتاب المقدس، أرض القضاة والآباء. أرض أورشليم والخليل وأريحا، وعلى العالم أن يفهم أن سيناء والجولان ومضائق تيران وجبال غرب الأردن تقع في قلب التاريخ اليهودي.

القوة التي حوّلت الكذبة والميثولوجيا إلى تاريخ حقيقي، كانت تتحدث، وأمام هذا السبط البربري الجديد، كان علينا أن نتحول إلى عبيد أو عنقاء النار التي تحدثت عنها أمي في مقبرة حيفا.

لما اخترت طريق الطب لم أكن ناسياً طريق الحريق. كان الرأس يرسم أبداً تموّجات العواصف والحقول المزدانة بلون الأرجوان. لكن ثرثرات الليالي وقيلولات ما بعد الظهيرة والصلوات واحتساء الشاي ودخان النراجيل وألعاب الداما والنرد والحياد عن الشر والأمان الشخصي، كانت تغطي الأفق وتعبئ فراغ الساعات والأيام، وتغلق مسام الروح، وتراكم الرماد فوق النيران المطفأة.

تحت ذلك الأفق الرمادي ارتفع صدى الانفجارات التي دوت في غور الأردن، ترددت وكأنها ردّة الروح للأجساد المسجاة في حيفا

وعكا والقدس وغزة ويافا ودير ياسين وكفر قاسم والقسطل والبيرة وقبية وقلقيلية، الأجساد التي سقطت تحت الانهدامات وفي البراري الوعرة وأعماق البحار.

لقد سطع البرق أخيراً من الأفق الرمادي المسدود. فهل كانت العاصفة على الأبواب والشعب غافل؟ أم أن البحر الذي كان يبدو ساجياً ومستكِناً كان يختلج بثيرانه الوحشية التي استيقظت أخيراً في رهبة هذا الليل القاتم؟

ومع أنني كنت أرى اليأس والاستكانة في أعماق الشعب، وعبر حياته اليومية الباحثة عن الطعام والمأوى ومواجهة الأمراض والأوبئة والكراهية وفقدان الأرض والسلام الشخصي، إلا أنني كنت أرى الإصرار والحقد واحتدام النفوس التي تجيش احتجاجاً على الوضع غير البشري الذي قُذف نحوه هذا الشعب التائه.

وتحت ستار حياة يومية، تبدو عادية وساذجة، كان عليّ أن أبدو رجلاً هادئاً ومحايداً يكرس وقته للبيت والعائلة وكسب المال ومداواة المرضى، وإجراء التجارب على الأعشاب في المختبر الذي طورت وسائله في قبو بيت جدي.

تحت هذه المظلة الخادعة لم تكتشف زوجتي بأن الغرفة الصغيرة المجاورة للمختبر قد تحولت إلى مستودع ذخيرة، يحتوي رشاشاً من نوع كارلوستاف وعبوات ناسفة وصندوق قنابل من مخلفات جيش الأردن التي تركها بعد انسحابه في المغاور، وبارودة دك مفضضة ومسدس باراشوت، وثلاث كلاشنكوفات روسية وبندقية ناتو، هربت بها من السجن العسكري في الأردن.

الحوارات التي كانت تجري في القرى التي أمرّ فيها، واللقاءات المنفردة في أواخر الليالي في البيوت المعزولة أو البراري، بدأت تكتسب أفقاً نوعياً بعد الأشهر الأولى.

لم يكن الشعب في مستوى واحد من فكرة الإقدام على العمل،

والقناعة بتغيير حياته القدرية التي وصل إليها. كان هناك فلاحون وعمال زراعيون وطلاب، وهؤلاء كانت أفكارهم ومواقفهم تصطدم بآراء المختار والشيخ القطناني، وفي القرى الأخرى كنت أرى وأستمع إلى الأصوات التي تجاوزت مرحلة الأنين والبكاء على أطلال الماضي والاستسلام لمشيئة القدر المحتوم.

كان الشعب يتململ بحالة جنينية ليخرج من حصاره، وذله، وانكساره، وسقوطه نحو الهاوية. وكان السؤال المقلق: كيف يستعيد الفلسطيني هويته حتى لايندثر؟

بعد أسبوع من اللقاء العاصف في بيت المختار عقدنا اجتماعاً في بيت الأستاذ سعدون البعيد عن القرية بحوالي كيلومتر، والمطل على الأودية. حلقة ضمت مجموعة صغيرة من الشباب المندفع لممارسة حياة جديدة، والخروج من هذا المستنقع الذي يتمرغ فيه شعبنا منذ عشرين عاماً.

شيء واحد أدركناه منذ البداية: أننا لسنا وحدنا بعد انفجارات الغور والبلاغات العسكرية التي صدرت.

لم يستمر الجدل طويلاً حول المسائل النظرية والمماحكات السياسية، والمواقف من الانهزاميين والمتعاونين مع الاحتلال، وطبيعة المجتمع الإسرائيلي. منذ البدء طرح سؤال حول العمل المسلح والعمل السياسي. هل هما متداخلان ومتّسقان أم أن الأفضلية الآن للقتال؟

وحول مسألة القتال طُرحت أشكاله المسلحة ضد منشآت العدو، ومفاصله العسكرية ومدنييه في المراكز والمواقع غير العسكرية. وعندما قال الأستاذ سعدون فياض بأن علينا أن نفرّق بين الثكنة وروضة الأطفال، قلت باحتدام: إسرائيل ليست أكثر من ثكنة عسكرية مزينة ببعض الرياض والحدائق. وقال العامل باسل الطيراوي وهو من عمال معاصر الزيتون في نابلس: يا عمي. هدول الإسرائيليين يفرقون بيننا كعمّال وبين الهستدروت بشكل كريه.

والله فلسطين يا إلهم يا إلنا على ما يبدو. ولأنها الآن لهم يعاملوننا كالزنوج في أميركا.

كان الطالب محي الدين سمعان صامتاً وتبدو عليه ملامح الارتباك، وعندما سأله جعفر جبريل: هاه محي الدين شو رأيك؟ قال: تاريخ النازية يتماثل مع تاريخ إسرائيل. لا أحد بريء من دم شعبنا. أنا أرى أن كل من جاء إلى إسرائيل جاء ليشارك بالفتك بشعبنا. كلهم قتلة في رأيي.

واعترض الأستاذ سعدون: لكن هناك مهاجرين عرفوا الحقيقة، كذلك هناك حركات معارضة للمشروع الصهيوني والهجرة المضادة مستمرة.

وتدخلتُ: من كان معارضاً منهم إما أن يرحل ويعود إلى بلاده أو يقف معنا. لاحياد في الصراع. جيش الدفاع الإسرائيلي يبيدنا منذ الهاغاناه حتى الآن.

وقال جعفر: من الخطأ أن نأخذ البريء بالمذنب، إسرائيل مجتمع غير متجانس وهناك ناس مخدوعون بالدعاية عن فردوس أرض الميعاد. وإسرائيل ليست كلها جيش الدفاع الإسرائيلي.

وقلتُ معترضاً: شعب إسرائيل هو احتياط جيش الدفاع. عرفنا ذلك وخبرناه في الـ 48 وفي الـ 56 وفي الـ 67 . نحن مخدوعون بالمسألة وحتى تزول هذه الخديعة في جدالنا تكون فلسطين قد خرجت من تاريخها العربي إلى الأبد وتهوّدت. اعترض بسام أبو عيطة آذن المدرسة الإبتدائية: ماذا تريد أن تقول يا أخ نافذ؟ هل تقصد أن تقول إننا لانحب بلادنا ولانريد أن نفتديها! كيف يهوِّدونها ونحن مازلنا أحياء؟ والله حتى تصبح يهودية يلزمهم قنابل ذرية أو غازات سامة يبيدون فيها كل عربي عن سطح هذه الأرض. أما مادام هناك عربي واحد بيحسّ أنو فلسطيني لن تكون لهم. يا عمي انتو عم تتعاركوا حول جنس الملائكة وحنا الشعب بدنا سلاح قبل الصلاة

على محمد. فيه سلاح بترجع فلسطين ما في سلاح اقرؤوا الفاتحة على قبر فلسطين والله يرحمها.

وإذ توجه الأستاذ سعدون نحوي قائلاً بأن الدكتور نافذ كضابط سابق يمكن أن يكون المسؤول العسكري، فوجئ الحاضرون.

شرحت بإيجاز أن مسألة التسليح ليست عقدة، إنما المسألة تكمن في اتفاقنا على العمل السرّي المطلق بشكل منظم، وإننا أخوة ورفاق في الحياة والموت، وإذا ما خُيِّرنا بين الشهادة والبقاء من أجل فلسطين علينا ألا نتردد في الموت، وأن البلاد قد دخلت حقول حرائقها، وعلى كلّ منا، إذا اتفقنا، أن يبدأ بتغيير مجرى حياته اليومية كإنسان جديد متأهب للموت الجميل: أجل. أجل. أسميه الموت الجميل والموت الحق والموت المقدس. نحن دون أن نعانق هذا الموت عبيد. سنعمل ليحيا شعب وتجري الدماء في عروقه وهو سيّد وحرّ. الموت ليس هدفاً لكنه يسهر معنا وينام ويأكل ويشرب، ويوقظ. بالموت سنكون أو لانكون.

الفصل الرابع

اليــوميـــات

1

اليوم رسمت خريطة القرى والمزارع المحيطة بالقرية داخل مساحة حوالى عشرين كيلومتراً. على هذه الخريطة عينت مواقع الكهوف والمغاور الجبلية والأحراج الكثيفة، ورسمت شعاب الدروب الصعبة التي لاتصلح إلا للعبور البشري. بين الأدغال والصخور وضعت علامات للأماكن التي تصلح قواعد للتدريب كما حددت المراكز التبادلية ومواقع الرمي.

2

حياتي اليومية في النهار شبه عادية. أصبح لدي سيارة شيفروليه صغيرة أنتقل فيها بين القرى ومعي الحقيبة الطبية. أحياناً أنزل إلى نابلس لأشتري حاجيات البيت ولالتقاط الأخبار عن أحوال الناس وأوضاع العدو والموقف من العمليات الفدائية.

ومع أن توازني النفسي بدأ يعود بعد اجتماعنا في بيت الأستاذ سعدون واتفاقنا على العمل، إلا أنني كنت متوجِّساً من أمور مبهمة، ربما تعود إلى طبيعتي السوداوية، وربما إلى الطفولة والآلام التي واكبتني على مدى عشرين عاماً من الموت والهزائم والمنفى، وتدهور هذا الشعب في مهاوي الخزي والقصور الذاتي وخيانة الحكام.

ومع ذلك أعتقد أنني أدرب نفسي يوماً بعد يوم حتى لا أخيب

روح الكولونيل محمد وثقته بي. لا أريد أن أكون بطلاً، لكنني أشعر بعبء ثقيل أمام أسرتي وشعبي الجريح. لابد أنني واقع تحت هذا العبء وهذا الشرط الذي يصادر حريتي الذاتية وملذاتي ورغباتي، ويضعني وجهاً لوجه أمام الموت أكثر مما يضعني أمام الحياة.

3

اليوم استدعاني فجأة الحاكم العسكري الإسرائيلي في نابلس. حضرت سيارة عسكرية فيها أربعة جنود اقتادوني إلى مقر الحاكم.

ومع أنني توجّستُ شرّاً وراء الدعوة، وهجست بتدمير السيارة أمام البيت والفرار إلى الجبال، إلا أنني أبعدت الفكرة وقلت: تصرف بهدوء وبرود الدببة لترى كيف يفكر هؤلاء وماذا يريدون. ومما طمأنني أنهم لم يدخلوا أو يقتحموا البيت بشكل هجومي. حارس الضيعة هو الذي قدم وأخبرني بأن هناك جنوداً إسرائيليين يطلبون منك اصطحابهم إلى مقر الحاكم العسكري. في المقر سألني الكولونيل شموئيل: ماذا تعمل يا دكتور نافذ في هذه الأيام؟ قلت: أداوي الناس. وقال: أنت طبيب عربي ومهنتك هواية ولديك الوقت الكافي لعمل آخر.

وإذ استفسرت عن العمل الآخر قال: مختار عينا بوس القديم كما تعلم هرب إلى الأردن رافضاً التعاون معنا. أنت يا دكتور إنسان معروف ومحترم ونحن نثق بك. مارأيك أن تكون مختاراً؟

وبابتسامة، لاصلة لها باحترامي والثقة بي، قدم لي علبة سجائره وطلب لي قهوة: نحن نرى فيك إنساناً مثقفاً يستحق موقعاً أكبر من هذا الموقع، ورغم ذلك فالعبرة في التواضع والتعاون الموثوق. والطموح يبدأ صغيراً ثم يكبر. كان الأمر مفاجأة. حاولت أن أراوغ فشرحت له بأنني غير طموح لأن أكون في مركز المختارية ولا في أي مركز آخر. ورغم أنني أداوي الناس إلا أنني أفتقر إلى الانسجام مع الناس ومعرفة تنظيم أعمالهم. استغرب

الحاكم موقفي: ولكن أنت طبيب والناس يثقون بك فكيف تقنعني بأنك غير اجتماعي؟

وقلت: الطب بالنسبة لي مزاج وهواية أكثر منه دراسة أكاديمية. أنا لست خريج جامعة طبية لأنني في الأساس مدرس لكنني أداوي الناس بالأعشاب على الطريقة العربية القديمة. أما على المستوى الشخصي فاسمح لي أن أقول لك، وقد تستغرب ذلك، بأنني رجل فوضوي في حياتي وفردي جداً وأكره المسؤولية الجماعية. هل تصدقني إذا قلت لك بأنني أحب الطبيعة والحيوانات والطيور والحشرات أكثر من الإنسان؟ صدقني إذا قلت لك بأن علاقتي بالناس ليست أكثر من حالة هرب من الضجر والملل اللذين أشعر بهما في لحظات الوحدة القاتلة. أنا إنسان غير اجتماعي يا سيادة الحاكم وغير مندمج ومصاب بحالة سوداوية تزيّن لي الانتحار.

حدجني بعينين كلبيتين. بدا مدهوشاً من أجوبتي الغريبة. في عينيه لمحت الشك واللؤم والاحتقار. وفي خيالي، وأنا أكزّ على أسناني، رغبت لو أقتلع عينيه. كنت الآن أطلق النار على رأسه فأشظيه وأنثر دماغه وأراه يختلج وهو يسقط سابحاً بدمائه.

أيقظني سؤاله: دكتور نافذ هل أنت وجودي؟

قلت: باستطاعتك أن تعتبرني عدمياً. الحياة والموت لدي متساويان. أنا أعيش يومي وكأنني سأموت غداً.

وسألني عن رأيي بإسرائيل فقلت متغابياً ومراوغاً: دولة ديمقراطية وهي بذلك تتفوق على البلاد العربية عدوة الديمقراطية.

وجسّ نبضي فيما إذا كنت سأتعاون مع السلطة الإسرائيلية، فقلت: لن أقاومكم. ما أرغبه أن تكون لي حريتي الشخصية، وأنا أعيش مع أسرتي بسلام وطمأنينة. أنا إنسان مسالم يمقت العنف.

قال وهو ينهض إشارة إلى انتهاء المقابلة:

سنكون سعداء لو تعاملت معنا وساعدتنا في حلّ بعض

المصاعب المحلية الطارئة. على كل حال أنا سعيد بمقابلتك. إذا رغبت شيئاً فأنا موجود. آمل أن تراجع نفسك حول موضوع المخترة وتتصل بنا.

4

الأمور تسير على مايرام. جهّزنا مواقع التدريب وحقل الرمي ومستودعات السلاح والذخيرة.

بدأت أدرب المجموعة على القتال القريب والكمائن وكيفية تنفيذ الإغارة على موقع معادٍ والانسحاب والتغطية.

كان ذلك يتم في المنطقة الواقعة بين قرية جمّاعين وبيت فوريك.

خلال الاستراحة أخبرتهم عن المسرحية التي جرت بيني وبين الحاكم العسكري. ضحكنا للمشهد الخيالي الذي تم خلاله نسف رأس الحاكم استيهاماً.

علّق الأستاذ سعدون بذكاء: أحلام اليقظة بوصلة الأعماق.

وقال جعفر جبريل: عملنا في الريف لا في المدن. النابلسيون سيطيحون برأسه قبل أن ننهي تدريبنا.

قلت: لاينفصل عمل الريف عن المدن. أينما وجد العدو فهناك الهدف. المهم استمرار الاتجاه نحو الهدف.

5

الجوّ مشحون. شائعات وأخبار المقاهي والسهرات تدور حول هرب المختار إلى عمّان. وشوشات حول علاقة المختار بالشيخ القطناني الذي دبّر له طريق الهرب لأمر ما. الشيخ القطناني يخطب في المسجد ضد إسرائيل والاحتلال وفي الوقت نفسه يهاجم الأعمال الفدائية المتهورة.

حوارات مستترة ومعلنة بين الفلاحين والأهالي حول الفدائيين. الشعب منقسم بين خائف ومستبشر. دوريات العدو وجواسيسه بدأت تنتشر وتتكثف في كل أرجاء الضفة. تهديدات بالسجن والموت لكل من يتعاون مع المخربين. إغراءات للمتعاونين مع سلطات الاحتلال ولكل من يقدم معلومات وأخباراً عن الفدائيين. اعتقالات ومداهمات في المدن والأرياف. لقد بدأت الاغتيالات والانفجارات تهزّ الضفة، وها هو العدو الذي اكتسح فلسطين وجزءاً شاسعاً من بلاد العرب، يغوص في الرمال المتحركة.

6

اليوم نفّذنا حكم الإعدام بجعفر جبريل على باب منزله.

تمّ ذلك بعد مداهمة دورية إسرائيلية لأحد مخازن الذخيرة. أنا وجعفر فقط كنا نعرف موقع المستودع.

كان الحدث مؤلماً لأن الرجل تخاذل. فبعد الانقطاع عن التدريب والتأخر ابتدأ يتحدث باستخزاء ويأس عن اللاجدوى من هذه الأعمال اليائسة والانتحارية ضد عدوّ قوي مزوّد بأفتك الأسلحة.

في البدء إذ رأينا إهماله وتخاذله حاولنا إقناعه بأن ما نقوم به ليس عملاً فردياً، وهذه الخلايا جزء من بؤر تنتشر الآن في الداخل وفي سوريا والأردن ومصر، وأن حريق الغابة يبدأ من عود ثقاب، ولابد من دفع الدم في الشرايين المتجمدة للشعب لينهض من كبوته.

وعندما قال بأن الحوار السياسي أجدى سألناه، وكنا ثلاثة في قبو بيت جدي، عن نمط الحوار الذي بدأه العدو منذ الـ 36 حتى الآن. وقال: نحن ضعفاء وإسرائيل انتصرت على العرب جميعاً في حروبها كلها.

وسألته: لماذا اقتنعت بالعمل معنا إذن منذ البدء؟ فأجاب: كنت مخدوعاً ومتحمساً.

وسأله باسل الطيراوي: ولماذا فترتْ حماستك؟ فقال: أنا متزوج ولديّ أولاد وأريد أن أعيش وهذه الأعمال تدمّر حياتي ولاأرى أنها تعيد فلسطين.

بقبضته ضرب بسام أبو عيطة جدار القبو غضباً. قال بألم: لو كل فلسطيني كان مثلك لاستحق الشعب الذل والموت إلى أبد الدهر. والله سأذبحك يا ابن الكلب. سحب مديته واندفع نحوه. وقفت في وجه بسّام ودفعته عنه: هيه. أنت مجنون! كل إنسان حرّ في اختيار مصيره. يا أخي الرجل مشى معنا شوطاً ثم أحسّ بعجزه عن متابعة الطريق. اسمع يا جعفر الطريق أصعب وأطول مما تتصور. أن تتراجع هذا شأنك. لكننا ننذرك. أنت تعرف أسراراً خطيرة عليها تترتب حياة أو موت مجموعة من أخوتك. إذا أفشيتها ستموت. نحن الآن مع أعدائنا ندخل صراع الموت أو الحياة وفلسطين إما لهم أو لنا. وأنت على ما يبدو لم تفهم ذلك أو أنك جَبُنت. أنت الآن حرّ إنما لك أن تراجع نفسك. لكن احذر الوشاية.

في الأسبوع الثاني دوهمت المغارة المجاورة لمركز التدريب وصودرت الأسلحة.

وفي اليوم الثاني للمداهمة ذُبح جعفر بمدية بسام أبو عيطة وهو يهمّ بدخول داره ليلاً.

7

في أعماقي تألمت لموت الرجل. وخلال يومين كنت نهب أحاسيس متصارعة. توقّعنا المداهمة والاعتقال فقررنا تأجيل اللقاءات واللجوء على مدى أسبوع إلى البراري ليلاً. كنا نراقب بحذر ونتسقط الأخبار ونراقب حركات ودوريات العدو. فكّرت بأن وجود المستودع بعيداً عن القرية ربما أضاع الشك. لم تحدث

مداهمات أو تفتيش للمنازل. تساءلت: ترى هل اكتفى الرجل بالإخبار عن مخبأ الأسلحة وبذلك افتدى المجموعة؟ أم أن العدو ينصب شركاً للإيقاع بنا؟

خلال أسبوع ونحن نحيا على أعصابنا التقيت ببرهوم الراعي في ضاحية القرية. سألته عن الأحوال فقال بأنها عادية سوى إن الشيخ أحمد القطناني تفقدك وسأل عن سبب غيابك عن الضيعة، وأنه منذ زمن يرغب بلقائي للحديث في أمور البلد بعد رحيل المختار، وهو يتحدث بين الناس بأن نافذ وحده يمكن أن ينظم هذه الأوضاع الفلتانة، ويدير شؤون الناس بعقله الراجح وكلمته المسموعة من الجميع.

8

أنا الآن مشتت بين العمل تحت الأرض «أندركراوند» وبين العمل اليومي المكشوف. ومع أنني مازلت أتحرك بحقيبتي الطبية ذات الطبقتين: العليا تحتوي الأدوية والعقاقير، والسفلى تحتوي مسدساً وقنبلة يدوية بعد انكشاف مستودع الذخيرة، إلا أن الأمور تبدو لي كأنني أسير في حقل ألغام.

بدأت أنام كثيراً خارج البيت. في الكهوف والمغاور وأحياناً في بيوت الفلاحين المعزولة والبعيدة عن قريتنا.

في الأماسي الهادئة بين الصخور وحفيف الشجر وتحت السماء العارية، أفكر، وأنا ملقى في أحشاء الليل الهادئ، إن كان ما أقوم به سيؤدي إلى شيء أم أنه محض اندفاع وراء حلم أبعد من هذه النجوم السحيقة. هاأنذا أخسر حياتي الشخصية ومسراتي جرياً وراء المثال الذي ارتسم في خيالي كما ترسم الصاعقة علامتها في الصخر وهي تشقه. رجل مقذوف نحو الجحيم على أمواجِ الخطر، بينما الآخرون ينامون بهدوء في المنازل الهادئة بعيداً عن أي

خطر. شعب متعب ومهزوم ومُهان وجائع ومنكوب يريد أن يرتاح ويأكل ويأمن ويستقر ويحب ويغني ويبني حياته بلا عواصف. منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهو يدفع الدم والشقاء والتشرد والجوع ضريبة مجانية. من هذا الشعب المنهك والموسوم بالذل والخسران كيف تستطيع يا نافذ علاّن أن تقيم سداً في وجه الريح والموت؟

أية مهزلة بشرية أن تستوهم في هذه العصور المنهارة أن خمسة مجانين من فدائيي الشعب يقلبون التاريخ ويعيدون تركيبه في زمن آلهة القوة والنذير النووي!

عندما أقارن هذا الشعب بالشعوب الأخرى المستعبدة والمتخلفة والتي انتزعت نصرها بكفاحها، أشعر بالراحة والثقة، لكنني في الوقت نفسه أحس بأن القياس ليس دقيقاً. لكل شعب خصائصه وتركيبه التاريخي وبناؤه النفسي، ولابد أن سنوات انحطاطنا وانهياراتنا وتعاقب موجات الغزو والقهر الخارجي، ثم هذه الروح القدرية الدينية، قد أورثتنا الكثير من الاستكانة والكثير من الخضوع واليأس. إنني مدرك أن حروباً طويلة ستتعاقب. انقسامات ودماء كثيرة ستسيل. معارك وحروب أهلية ستنشب حتى يصبح الشعب شعبين والأمة أمتين: شعب الفقراء والمنبوذين والجياع والمهانين، وشعب الأغنياء واللصوص والقتلة والعملاء والطغاة. أمة ينفصل فيها السيد عن المسود، والراعي الظالم ومن معه، عن رعيته.

شيء واحد مؤمن به ومندفع نحوه في الوقت الراهن: الموت.

ليست فكرة النصر ما أنا مندفع نحوها، إنما الموت الإرادي المنظم والمخطط له. وحدها التضحية في هذه البرهة يمكن أن تحدث الانفجار. انفجار تسمعه الآذان الصماء، وترى ناره العيون الكليلة، ويلسع طعمه المرّ الأفواه التي تثرثر بلا جدوى.

انفجار يصنع حالة قلق وذعر ويقظة وتوجس وخروج من زمن الغفلة والوحل والاستكانة والطمأنينة الخادعة. انفجار ينشر الدماء

على الشجر والصخر والأبواب وغرف النوم والشوارع والمقاهي والحقول والخمارات فينعكس رشاش الدم على مرايا النفوس الميتة ليوقظها من سباتها العميق.

9

اليوم فتحت كتاب التوراة وقرأت في سفر التثنية: «إذا أدخلك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل لترثها أستأصل أمماً كثيرة من أمام وجهك: الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والغرزيين والحويين واليبوسيين. سبع أمم أعظم وأكثر منك. إذا أسلمهم الرب إلهك إليك فأبسلهم إبسالاً - أي أهلكهم وأفنهم - لاتقطع معهم وعداً ولاتشفق عليهم ولاتصاهرهم. تعملون بهم هكذا: تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون أشجارهم وتحرقون أطفالهم وتسبون نساءهم وترمون بتماثيلهم إلى النار».

كتبت في يومياتي: القوة، القوة، الموت، والدمار، والإبادة حتى آخر الدهر. هذا هو القانون الذي استنّوه وهذه هي الشريعة التي اختطوها منذ ثلاث آلاف عام فصارت ناموساً حتى يومنا هذا.

إلى متى سنظل نعاجاً تُذبح في مواسم الأعياد؟

وإلى متى سنظل نندب كشيعة عاشوراء هذا الحسين المغدور؟

10

وأنا عائد من منطقة طوباس في وادي الغور رأيت فلاحاً يدرس حنطته على البيدر. كنت عطشاً فانحدرت نحوه. بعد السلام والشرب جلسنا نتحدث وندخن. سألني عما أفعل في هذه البراري، فقلت له بأنني طبيب متجول أمرّ على القرى والأهالي وأدوايهم. انعطف بنا الحديث إلى أحوال البلاد والعباد والحرب والهزيمة الصاعقة للجيوش العربية. وروى الفلاح كيف رأى الضباط يفرّون ويرمون أسلحتهم ويحتلطون بالرعاة بعد نزع تيابهم العسكريه حتى

لاينكشفوا من إسرائيل. وعلقت على ذلك بأن هؤلاء كانوا أسوداً علينا في السلم لكنهم نعامات تفرّ في الحرب، ونحن الفلسطينيين اليوم واقعون بين نارين: نار اليهود ونار هؤلاء الحكام العسكر.

بعد أن أنس الفلاح مني أخبرني بأنه عثر على بعض القنابل اليدوية التي تركها العسكر وراءهم، وهو خائف من حيازتها فهو لايعرف كيف يستعملها، ونهض إلى طرف البيدر حيث دفنها تحت أكوام السنابل وأتى بها.

كانت قنابل انكليزية من طراز الـ 36 يستخدمها الجيش الأردني. سألته إن كان يعطيني إياها خوف انكشافها لديه من قبل الحرس الوطني فلم يمانع وقال:

خذها يا أخي وخلصني منها. والله كنت أحس بها وكأنها أفاعٍ. يلعن أبو السلاح. أنا فلاح ولا علاقة لي بهذه البلاوي التي لاتأتي إلا بالخراب.

قبل مغادرته سألني إن كان لدي أدوية لألم المفاصل والديزانتريا. أعطيته زجاجة صغيرة وشرحت له كيفية استعمالها. قال: ما ثمنها؟

ضحكت وقلت: هذه مقابل القنابل.

أكملت طريقي والدنيا أول المساء في وادي المغطس. فكرت فجأة أن أجرّب قنبلة. في تلك اللحظة سمعت هدير شاحنات إسرائيلية. كنت في بقعة مرتفعة فوق الطريق محتمياً بصخرة مغطاة بشجرة سنديان. كانت هناك ثلاث شاحنات تتقدم على الطريق. انتظرت حتى صارت الأولى تحتي على مرمى ثلاثين متراً تقريباً. قذفت الشاحنة بقنبلة فانفجرت اتبعتها بالثانية ثم الثالثة ثم انسحبت صُعُداً في السفوح. لقد أصيبت الشاحنة وتدهورت في الوادي وسمعت الأصوات والصرخات وانهمر إطلاق النار باتجاهي.

بأعجوبة نفذت واتجهت نحو عينا بوس. لم أنَمْ في البيت.

قضيت ليلتي في إحدى المغارات المجاورة للقرية وفي الصباح ذهبت إلى البيت.

كانت العملية مرتجَلة ومحفوفة بالمخاطر. ماذا لو أن القنابل لم تنفجر؟ لو أصبت وأنا أهرب بين الصخور والأدغال؟

ومع ذلك داخلتني نشوة عميقة. أحسست نوعاً من التوازن والثقة الداخلية وأنا أواجه العدو عملياً لأول مرة.

هذا التمرين الفجائي كسر جدار خوفي الداخلي من سطوة العدو، وحرّرني.

11

التقيت هذا المساء بأربعة من أفراد الخلية في كهف من كهوف الوادي المجاور لجمّاعين. شرحت لهم قصة الفلاح والقنابل وتجريبها. أُدينت العملية بالإجماع واعتُبرت عملاً فردياً أحمق، ومثل هذه الأعمال يقود إلى المهالك وكشف التنظيم المسلح وينبغي تحاشيها.

اعترفتُ بالخطأ، لكنني شرحت إمكانية العمل الفردي الاستثنائي ودوره في العمل الفدائي، وأن المبادرة الذاتية إذا اختيرت بدقة وتخطيط يمكن أن تؤدي دوراً فعالاً. اتفقنا أن نتحاشى ما أمكن هذه المخاطرات والاندفاعات الحماسية التي لم يخطط لها، خاصة ونحن الآن تحت المراقبة ومستودع الذخيرة انكشف. ولما نجرِ بعد اتصالات مع القيادة في الأردن أو سوريا.

في ختام الاجتماع اتخذنا القرارات التالية:

1 ـ الحصول على أسلحة جديدة من الأردن سواء عن طريق القيادة أو شراءً.

2 ـ إجراء اتصال بالقيادة والتنسيق بين عمليات الداخل والخارج.

3 ـ نقل مركز التدريب وإقامة قاعدة سرية في منطقة زوّاتا.

4 - الظهور أمام الناس في القرى والمدن بمظهر عادي وعدم إبداء الحماسة الظاهرة للأعمال الفدائية.

5 - اختيار عنصر أمن لرصد مواقف الناس والعدو والمتعاونين الخونة.

12

بعد أسبوع من الاتصال بالقيادة وإعلامها عن وضعنا، طوّق الإسرائيليون المنزل.

استولوا على سيارة الشيفروليه واقتادوني مرة أخرى إلى مقر الحاكم العسكري بنابلس.

هناك جرى استجوابي بتهمة مساعدة الفدائيين ونقل أسلحة ومتفجرات بسيارتي.

- هكذا إذن! رفضت التعاون معنا لتعمل مع المخربين. وثقنا بك وعرضنا عليك المختارية وها أنت تحفر الأرض كالخلد من تحتنا سراً. يا ضياع الثقة يا دكتور! قال الحاكم العسكري.

لقد حاولت دحض التهمة بأنني طبيب لديه عائلة يريد أن يعطي حياته لها، وأنني لا أفقه في السياسة حرفاً، لكن الحاكم العسكري زجرني واتهمني بأنني أمثل دوراً مكشوفاً لاينطلي عليه. كنت متوجّساً أن يواجهني باعترافات جعفر جبريل وحادثة قتله، غير أنه تحدث عن نقل الأسلحة بين الأردن والضفة والتعاون مع قيادة المقاومة. وقال بأن إسرائيل أقوى من كل العرب مجتمعين فكيف بحفنة من القتلة تعتقد أنها قادرة على تدمير إسرائيل: لقد هزمنا جيوش العرب في ثلاث حروب وسنهزمهم في جميع الحروب، ومن خلال هزائمهم المتواصلة سيضطرون للركوع والاستسلام. اسمع يادكتور. دعك من المراوغة واعترف. بشرفي العسكري إذا اعترفت وتعاونت سأبرئك.

قلت: في المقابلة الأولى اعترفت لك بصراحة ما أنا وكيف أفكر. والآن أقول لك بالصوت العالي: إلى الجحيم والشيطان

الفدائيون والعرب وفلسطين. صدقني بأنني أكره هؤلاء الحكام العرب الجبناء الذين لايستحقون إلا الاحتقار. (وأنا أكذب، بدأت أطلق النار على رأسه وصدره ناثراً دماغه على الحائط، كان الآن وراء مكتبه مدرعاً بقوته وانتصاراته ونياشينه وهاتين العينين الزرقاوين الراغب في سملهما).

ضحك باستهزاء: ها أنت تتغابى مرة أخرى وتمثل دوراً هزلياً لاينطلي علينا.

وقلت وأنا أتوجس المواجهة بحادثة قتل الخائن وكشف مستودع الذخيرة، مقامراً بحياتي: أثبتوا التعاون مع المخربين وأنا مستعد للسجن المؤبد أو الإعدام.

وسألني: لماذا رفضت التعاون معنا في أن تكون مختاراً؟

ـ لأنني إنسان محايد ومسالم ولا أريد أن أزج بنفسي في الصراع الدائر. ثم استطردت أشرح موقف المواطنين العرب الذين يخشون الفدائيين وانتقامهم إذا ما تعاونوا مع السلطات الإسرائيلية. وأن هؤلاء المواطنين يعيشون بين نارين ولذلك يفضلون الحياد: ابتعد عن الشرّ وغنِّ له يبتعد عنك، هذا ما تقوله الحكمة العربية.

ـ أنت تعتقد أن إسرائيل شرّ؟

ـ لا. لم أقصد ذلك. إنما قصدت الحرب. فلسطين على مدى العصور كانت أرض المعارك والمآسي. وفي اعتقادي أنها كانت حروباً لامجدية جرّت الويلات والدمار على اليهود والعرب، ونحن شعب هذه البلاد كنا دائماً ضحايا هذه الحروب اللامجدية. لماذا لانعيش بسلام ومحبة فوق هذه الأرض التي أنهكها القتال والدم. (كنت أرى الآن دمه يختلط بخريطة إسرائيل ونجمة داوود المعلقة على الحائط وراءه).

تراخى غضبه وحنقه وهو يتأمل هذه المسرحية الهزلية: ولكن هل تعتقد أن الحياد ممكن في هذا الصراع؟

ـ الحياد ممكن بالنسبة للحرب. الحرب هي الدمار الشامل

للبشرية وأنا من دعاة السلام. (كان الآن يصرخ ويسبح في دمائه وأنا مستمر في إطلاق النار عليه).

ـ اختيار إسرائيل التي تريد السلام وتخوض الحروب من أجله يتطابق مع أفكارك. قل لي: لماذا لا نعمل معاً وتتخلى عن هذه الشيوعية القذرة التي تجرثم رأسك؟

كانت عيوننا الآن تتواجه. هو في موقع القوة والسطوة والحقد، وأنا في موقع الاتهام والضعف. وكان قلبي يدق موثقاً جسدي إلى الكرسي حتى لاأثب وأنشب أظفاري في وجهه وعينيه وأنتزع لسانه.

قلت بهدوء ما قبل الزلزال: سيادة الحاكم أنا لست شيوعياً ولا فدائياً ولاسياسياً. عدا زوجتي وأطفالي وطعامي وكسائي وخمرتي وكسبي وتجارتي طظ على العالم. تمرمرت كثيراً من الحرب والموت ونفسي عافت الشقاء. بصريح العبارة أقول لك أنا مؤمن بشيء واحد: إذا هبت رياحك فاغتنمها. وعما قريب سأغادر هذه الفلسطين الملعونة إلى بلاد الله الواسعة بعيداً عن كل هذه المصائب.

قال الحاكم وهو ينهض: لم يقنعني كلامك رغم رائحته المنعشة. ثمة روائح كريهة تستبطنونها في مؤخراتكم. أمثالك من الانتهازيين والعدميين قد لايساوون أحياناً أكثر من الركل في المؤخرة أو طلقة الرحمة. اخرج الآن. السيارة صُودرت وأنت تحت المراقبة. تأكد بأن إسرائيل قادرة على أن تحصي أنفاسك. وسأكون مسروراً أن أسمع عنك وأن أراك في الخمارات والملاهي أكثر من السماع عنك في كهوف الجبل. أنت رجل مثقف والمثقفون يعرفون الدروب المستوية التي لاتؤدي إلى الحفر والمهاوي.

عندما خرجت كنت حزيناً لشيء واحد: أنه مازال حياً.

13

كنا نعتقد بأننا ندفع الدماء الحارة في العروق الباردة. وفي ذلك الوقت ما كانت المسألة لتتجاوز ذلك، رغم الاعتقاد الذي بدأ

يسود في أوساط الشعب وفي مخيلته عن قوة العمل الفدائي المسلح وفعاليته البديلة عن الجيوش العربية المندحرة. بدأ الناس في بلاد العرب ينسجون الأسطورة الخارقة عن الفدائي ـ الشبح الذي يضرب ويهرب دون أن تناله دوريات جيش الاحتلال المنتشرة كالذئاب الجائعة في شوارع وساحات المدن والأغوار وعلى الحدود. كانت أصداء الأسطورة تتردد كدويّ الرعد، وكان هذا الدوي يشد العزائم ويزيل غبار الخوف المتراكم في النفوس معيداً الثقة للشعب المهزوم والجريح.

14

بعد أسبوع اجتمعنا. شرحت للشباب ما حدث معي في مقر الحاكم العسكري، وقلت بأن العدو، على ما يبدو، تردِه تقارير غير دقيقة دون أن تكون لديه وثائق أو وقائع، وأن جعفر لم يعترف على ما يبدو إلّا على المستودع. العدو يستشعر الخطر لذا يضع كل الشعب في حالة اتهام. بالإمكان أن نمثل الآن بشكل ما أدواراً مضادة للفدائيين أمام من نشتبه بهم أنهم أعوان أو جواسيس أو متخاذلون.

أعتقد أن علينا تحاشي الارتجال والحماسة الدونكيشوتية التي تكشفنا.

حدث جدل حادّ بيني وبين الطيراوي حول الازدواجية بين القول والعمل. كان رأيه أن هذا التناقض يفسح مجال التطاول والمساومة أمام العدو الذي لايفهم قانون الحياد، كما أن تصريحاتي المعادية ضد فلسطين والفدائية في مقر الحاكم مسجّلة، وستستخدم ضدنا وأمام شعبنا وبذلك يفقد ثقته بنا.

أوضحت أننا في حالة حصار وخطر مميتين، والعمل السرّي لايحتمل الخطأ ولو لمرة واحدة. حادثة جعفر نجونا منها بأعجوبة.

لو اعترف بشكل كامل لكنا الآن في السجن، لكن يبدو أنه افتدانا بالأسلحة وقتله ربما كان ارتجالاً متسرعاً.

قال الطيراوي: لكن لماذا تُستدعى مرتين إلى مقر الحاكم إذا لم تكن مكشوفاً؟

ـ هُمْ يشتبهون بي وأنا مراقب. من أجل ذلك أقول لنمثل دوراً معادياً يوحي للعدو بالثقة. أقترح إيقاف العمل الآن أو الانتقال النهائي إلى الجبال للتمركز في القاعدة.

ـ الاقتراح الأول سلبي والثاني متطرف ومرتجل. قال الطيراوي. وسأل سعدون فياض: إذن!

وردَ الطيراوي: لا أدري. نافذ أيقظ الدب في الكرم وهو المسؤول. دائماً يرمينا في المضائق.

وقال أبو عيطة: لابد من الاتصال بالقيادة.

قلت: هذا صعب في هذه الظروف. القيادة الآن تاركة لكل الناس المبادرة.

قال الطيراوي بنزق: إما أن نتابع العمل أو كل منا يصلّي على نبيه. قسم يختفي والآخرون يمارسون حياتهم اليومية واتصالاتهم بحذر. هذا ما أراه الآن.

ـ إذا استطعنا تأمين الاتصال بعمّان خلال أسبوعين ربما تسير الأمور بشكل أفضل.

اتُّخذ قرار بأن أحاول الاتصال بالأردن بالطريق التي أراها مناسبة.

15

وكان على الجرح أن يظل في حالة نزف ليتواصل الألم، ولتنكسر طبقة الجليد الجاثمة فوق سهب النفوس اليائسة. الصدمة القوية لابد أن ترجَ الأعماق ليستيقظ الذين أصابهم ذل وعار بلا

حدود. ومن تلك البوابات المفتوحة والنازفة، والمستباحة، كنا نحاول الدخول والسير ببطء على الصراط المؤدي إلى الجحيم. كنت ممروراً، أرى الجانب المظلم من الكرة الأرضية وأعيش فيه، معتقداً بأن الدماء وحدها الإضاءة. أراها تفتح الطريق أمام هذه القبائل المشردة تحت الشمس والتي ما عاد لها من يهديها. وكان ذلك هوساً على نحو ما، كما كان صائباً على نحو آخر. بدت القوانين الموضوعية ضائعة ومسحوقة تحت سطوة الأقوى. وهكذا بدت قوانين الاحتمالات والاستثناءات كأنها هي السائدة. كل الدروب تودي إلى الجنّة أو النار مادامت فلسطين قد ألغيت بقانون الغاب، وتحولت خريطتها إلى أرض من الوحل والدم والمقابر.

«ليس هناك متسع لشعبين على أرض واحدة. إذا ظفرتم بهم فأبيدوهم عن بكرة أبيهم كما يُباد قطيع من الخنازير حوصر في حظيرة. الرجال والنساء والأطفال والمنازل والذكريات والشرائع والأحلام والتقاليد. لكي تعيش إسرائيل لابد أن تموت شعوب الأمم القديمة والغريبة. تموت بحد السيف الذي صنعه إلهك الربّ من قوة الفولاذ ولمعان الشمس».

16

بعد أسبوعين من استجوابي ألقوا القبض على ابن خالتي سرحان. وضعوه في سجن نابلس وحكموا عليه بثماني سنوات بتهمة التعاون مع الفدائيين. لم يكن فدائياً لكنني ورطته بنقل رسائل إلى الأردن. كان يعمل مهرباً بين الضفة وعمان.

سرحان كان يعيل الأسرة بعد حجز سيارتي. بعد حبسه واجهت الأسرة الإفلاس والجوع.

قلت لنفسي: عضّ على الجرح يا ولد. ها هم أولاد العاهرة يحاصرونك ويدفعونك إلى الهاوية لتكشف أوراقك ومن ثم يجهزون عليك.

أخبرتني زوجتي بذلك في ليلة من ليالي نزولي من الجبل. وفي غمرة حزنها سألتني من أين سنعيش بعد اليوم وأنت بعيد عنا معظم الأوقات.

قلت: لا عليك يا امرأة. أنحتُ الصخر وأعتشب البراري لأطعمكم. الشعب معنا ولن يتخلى عنكم. وسألتْ متوجّسة إن كنتُ سأستمر في هذه الدروب المهلكة. وقلت: مشينا ولن نتراجع. الرجوع عارٌ وخيانة. وسألت: ولكن ماذا جنينا؟ قلت: الشقاء والمرارة والموت. وقبل ذلك الشقاء والمرارة والتشرد والموت.

وقالت: لماذا يستمر هذا؟ وقلت: افهمي ياامرأة. مكتوب على وجه الفلسطيني أن يظل تائهاً وشقياً حتى يلقى سيفه الذي أضاعه قبل أكثر من ثلاثين عاماً. وقالت: أنت تحمل الدنيا على ظهرك والناس مرتاحة. وقلت بحنق: أنت لاتعرفين ماذا يجري. ما يبدو الآن كأنه خطأ سيكون صواباً فيما بعد. إما أن نفنى أو نعمل هذا الذي نقوم به. الموت هو قيامة الفلسطيني. وتهدجت بين الألم والبكاء: لكننا نجوع ونمرض ونحن مهددون. انظر. البنت مريضة منذ شهر ونحن لانكاد نملك ثمن الدواء.

وصرخت بصوت مجروح: كفى. كفى. الزمي الصمت ولاتطرحي بعد اليوم أسئلة. إذا كان البيت والأولاد يثقلون عليك ارحلي إلى أهلك. أنا أعرف طريقي والنجوم التي تهديني كما أعرف قبري.

17

مع الغروب وأنا أسير في ضواحي القرية سمعت وقع خطوات تبعها صراخ عميق. تلفتّ إلى الوراء. ابنة الجيران تعدو وتلوّح بيدها. توقفتُ حتى وصلت: ما الخبر؟ كان في وجهها نذير خوف واستغاثة. قالت: الطفلة تعاني نزيفاً حاداً وأمها تبكي ولاتعرف كيف تتصرف.

عدت إلى البيت سريعاً. جسستُ نبض الطفلة التي لم تكمل عامها الأول. كان النبض بطيئاً ولون وجهها كلون غضار الأرض. وضعتها في حضني. كان واضحاً من ذبول عينيها وحشرجاتها المتقطعة أنها تنازع. لم أكن أملك فلساً. خجلت أن أطلب مالاً من الجيران والأصدقاء. الناس تعتقد أنني ميسور لأن لدي سيارة. سهرت على الطفلة الممددة بين ذراعي حتى منتصف الليل. حاولت إيقاف النزف الرئوي ببعض الأدوية المتوافرة لدي.

قبل الفجر خفق قلبها خفقان عصفور أصابته طلقة في القلب. اختلجت في حضني خلجات متواترة ثم شحب لونها وأغمضت عينيها.

مع الفجر فتح الطائر الصغير الجميل عينيه بهدوء ثم فتح فمه ليفسح المجال للهواء. شيء ثقيل كان يضغط الصدر لم يلبث أن خرج من الفم وطار باتجاه الفضاء والغابات. طار إلى الأبد.

18

غسلنا الطفلة وكفّناها بوجه اللحاف الأبيض وحملتها إلى المقبرة.

في المقبرة صلّى الشيخ القطناني على الجثمان.

بعد الدفن اقترب مني وعزّاني مع بقية أهالي القرية الذين حضروا الجنازة. بعد العزاء انفرد الشيخ بي وأسرّ بأنه يرغب مقابلتي على انفراد لأمر خاص ومهمّ وعاجل.

19

في تلك الليلة جافاني النوم. لم أكن حزيناً بقدر ما كنت منقبضاً. خرجت ليلاً أسير على غير هدى. كان القمر بدراً والأشجار تلمع تحت أشعة القمر، وجبال عيبال وجرزيم تبدو على البعد كأشباح أسطورية. جسدي كان يرتعش ارتعاش الأغصان تحت

الريح. من الفضاء والأرض ولمعان الأشعة كنت أسمع أصواتاً غريبة. أصوات مجنونة، نائحة. دويّ الأصوات كان يطوقني، يكاد يقذف بقلبي من صدري. ما كنت مكتئباً ولاتعيساً. إحساسي كان إحساس الوحش الساقط في مصيدة خفرت في أعماق الأرض. في تلك الحفرة مرّت أطياف القتلى فوق أوراق الشجر وفوق السماء والبحار وتحت الأنقاض. كنت عاجزاً ووحيداً في تلك اللحظة. لماذا لست قادراً أن أفعل شيئاً من أجلهم؟ ولماذا لا أستطيع أن أعيدهم إلى الحياة بدويٍّ هائل يزلزل الأرض؟ كان الدويّ في رأسي. وكان انقباضي ناجماً عن هذا العجز العاري. العجز الذي لايستطيع تجسيد الدوي بضربة واحدة يتخلخل من صداها توازن النجوم والقمر والأشعة والصخر والشجر، وكساح هؤلاء الناس. لم أر نفسي إلا وأنا أمام مغارة الذخيرة والأسلحة التي اخترناها في أحد أودية زوّاتا.

نمتُ في المغارة حتى انبلج الفجر.

مع أشعة الشمس الأولى انحدرت نحو القرية ومعي مسدس وقنبلة مهيأة للتوقيت.

20

كانت الساعة العاشرة والنصف عندما وصلت نابلس. عرجت على حانوت واشتريت علبة دخان ثم انعطفت في شارع فرعي. تناولت من أحد المطاعم سندويشتي فلافل. بهدوء زمقت إلى مدخل عمارة وصعدت الدرج. أخرجت القنبلة وضبطت توقيتها ثم لففتها داخل إحدى السندويشتين ثم عدت ونزلت الدرج.

الذين يعرفونني كانوا يقولون بأن أعصابي بترولية سريعة الاشتعال. في ذلك الضحى، وأنا أتجه نحو هدفي، وضعت أعصابي في أحشاء القنبلة. عبر الطريق من عينا بوس إلى نابلس كانت الطفلة تتراءى لي وهي تختلج بين يدي ثم وهي مكفنة، ثم وهي

تهوي في أعماق الأرض. جاءت ورحلت كالحلم ولما ترى الدنيا. كان الهدف الذي أتجه إليه يتطاير في رأسي شظايا وذرات تغطي كل مساحة المدينة.

مع اقترابي من مقر الحاكم العسكري، خفق قلبي.

ضغطت أسناني على السندويشة الفارغة التي أقصمها. رصدت المبنى المحروس بجولتين بعيدتين من عدة زوايا. قدرت أنني لن أستطيع قذف القنبلة إلا من مكان بعيد نسبياً وغير مؤثر. فكرت بتأجيل العملية وإلغائها وأنا أبتعد نحو مقهى قريب. طلبت شاياً ونرجيلة وبدأت أراقب من نافذة المقهى حركة الحرس من الجانب الخلفي للمبنى. قست مسافة الرصيف الذي يتحرك عليه الحرس وسرعة خطواته من محرسه الخشبي حتى الطرف الثاني من الرصيف. كان متوسط الوقت بين المحرس وطرف الرصيف لايتجاوز الثلاث دقائق. هذا المعدّل الوسطي رصدته خلال اثنتي عشرة حركة مزدوجة. مرة واحدة خلال هذه النوبات التفت الحارس إلى الوراء.

أخرجت قلماً وورقة وكتبت مشروع رسالة مشوّشة ووهمية لابنتي التي ماتت. عزيزتي نهلة: وأنت تدخلين الآن عالم الملائكة أدخل أنا عالم الأبالسة والنيران. تحملك الآن الغيوم البيضاء فوق مروج بيضاء إلى جنائن الملائكة البيضاء، وتحملني الآن الرياح السوداء في الزمان الأسود شوقاً إلى الأيام البيضاء. أنا لست داخلاً في الالتباس ولا في اختلاط الألوان، ولكنني أقف على حافة الأرض الرخوة، أرض الوحل التي اجتاحها الطوفان ثم انحسر عنها تاركاً في خلايا ذراتها كثافة من الرطوبة تستعصي على اختراق الشمس

ما يحدث لايأتي بالنصر المؤزر، لكنه يضع المومياء تحت الوهج والتحلل وبذلك تفرز الخلايا القادرة على الحياة من الخلايا الميتة. إن في الأمر نوعاً من الاختبار لقطبي الحياة والموت داخل جسد وفي أعماق شعب. ومع ان الاختبار كان طويلا وممتدا في

التاريخ منذ عصور السقوط الأولى، إلا أن هذا مايزال ماثلاً حتى الآن وحتى عصور قادمة.

عزيزتي: أستطيع أن أقول بأن العدو لم يكن قوياً كما قال الحاكم العسكري لي بأن إسرائيل لاتقهر. إنما نحن كنا شتاتاً وأعداء ومحكومين بحفنة من الكلاب الجائعة والمسعورة، فكان العدو قوياً بهم.

وفي ذلك الوقت كان بإمكان الحريق وحده أن ينبّه للدمار الذي أصاب الخلايا. بإمكانه أن يخلخل الاستقرار الكاذب والمؤسسات الكاذبة والسلام الجرثومي الذي فتك بخلايا الدم وأفسدها.

كانت الرسالة خديعة أو تسلية بينما الهدف هو أن أرسم على الورق تحتها تخطيطاً للحركة والزمن اللذين يستغرقان تنفيذ العملية والهرب. وهكذا رسمت، تحت توطئة الرسالة الوهمية، خط سير الانطلاق ومسافة الوصول إلى النافذة الخلفية وقذف القنبلة والزمن اللازم، ثم حركة الانعطاف قبل انتباه الحارس والولوج إلى حانوت مقابل المقهى الذي أجلس فيه الآن، ثم الخروج من الحانوت والاختلاط العفوي بالناس والسؤال عما حدث.

لم يكن الزمن كافياً. كنت بحاجة إلى خمس دقائق لتنفيذ الخطة.

الساعة تشير إلى الثانية عشرة. أحرقتُ الورقة التي كتبت ورسمت عليها ثم سحقت رمادها تحت الطاولة. نهضت واتجهت إلى باب المقهى. أشعلت سيجارة وانعطفت يميناً نحو الرصيف المقابل. سرت بهدوء خلف رجل يمسك بيد طفلته. على الرصيف المقابل الملاصق للمقر يسير الحارس وظهره إلي، وبندقية الناتو معلقة على كتفه. لم أكن قد حسمتُ الأمر في التنفيذ أو التأجيل. رغبة العملية كانت طاغية وكل حواسي واقعة تحت سطوتها، لكن الفشل سيدمر كل شيء، وكنت مصمماً على النجاح. كانت المسألة امتحاناً لعقلي وقدرتي على كسر السطوة والخوف. لقد وصل الحارس إلى

محرسه في الزاوية الغربية وبدلاً من عودته استراح داخل المحرس. خلال ثوانٍ تفاعلت الأشياء في ذهني. معادلة الزمن حُلّت فاستوليت على الدقيقتين اللتين أحتاجهما. وثبت من الرصيف الذي أسير عليه إلى الرصيف المقابل، ستر الجدار الجانبي للمحرس بيني وبين الحارس، وكمن يسير في الهواء كنت أمام النافذة الخلفية. أخرجت السندويشة وقضمتها فنزعت أمان القنبلة وقذفت بها من النافذة ثم طرت بين الرصيف والمنعطف الذي قذف بي إلى دكان بائع مرطبات.

حدث الأمر كحلم كابوسي لكن الانفجار كان اليقظة.

21

مساء كنت في عينا بوس. بدوت لزوجتي منشرحاً وفي حالة من الغبطة لم تألفها. انجلى الكابوس عن صدري. كانت الدنيا في عيني جميلة. قبلت زوجتي وطفلي الصغير. حملت الطفل وأرجحته يميناً ويساراً ثم قذفته في الفضاء وتلقيته بين ذراعي. كان الطفل سعيداً، بسمته وزقزقته فتحت ملايين الأزهار في حدائق قلبي المحتقن بينابيع الدم.

سألتني زوجتي: هاه. مالك؟ من غير العادة!

قلت: اليوم أنا مغتبط. ألديك خمرة؟

غنيت للطفل ودحرجته على الفراش. داعبت ثغره وأنفه وحككت له تحت ذقنه فثغا وضحك، وإذ حملته إلى سريره بال عليّ منتشياً بفرحي.

صرختُ بالأم: تعالي خذي طفلك البوّال.

قالت: أحضّر لك العشاء. دبّر راسك معه.

وأنا أهز سريره لينام وصلتني أصوات الذعر وصفارات الإنذار وعربات الأسعاف. خرجت من البيت وبدأت أسير بهدوء في

الشارع الرئيسي وأدخن. سألت المارة عما حدث فقالوا هجوم كبير للفدائيين بالرشاشات والقنابل على مقر الحاكم العسكري واشتباك بين الفدائية واليهود في الشارع العام.

كانت وجوه الشعب طافحة بالحبور والحنق تحت قشرة الخوف والتوجس.

لقد ضُرب الوحش في وكره فاهتز الجدار الحصين. بالإمكان الآن التنفس بعمق، كما بالإمكان العودة إلى البيت لاحتساء كأس من الخمر بعد هذه الضحكة العميقة لطفل يستحق أن يحيا.

الفصل الخامس

زمن الحلم والخيانة

بعد عملية ضرب مقر الحاكم العسكري في نابلس، والتي نُفذت بقرار فردي وثأري، انطوت صفحة مهتزة من حياة نافذ علّان، الحكيم العربي الذي يداوي الناس بالأعشاب، والذي يخطط وينظم سرّاً ثم يقوم بالتنفيذ استجابة لرغباته ولتموجات أقواس الغضب والدم التي تجتاح أعماقه.

صار اسمه الحركي: «الجبل». بعد أن كشف العدو حركاته وعلاقته بالعمل الفدائي المسلح وبثّ العيون لرصده وصيده حياً أو ميتاً.

سكن الجبال والكهوف زمناً وقام بعدة عمليات خاصة، وما كان ينزل عينا بوس إلا ليلاً بعد التأكد من خلوها من الخطر.

سمّته إسرائيل: ذئب جبال نابلس الكاسر. وقال عنه الحاكم العسكري الذي نجا من قنبلته: لم يخدعني رجل في حياتي كما خدعني هذا الثعبان.

خلال شهر استطاع أن يعيد تنظيم مجموعته وزيادتها إلى ستة عناصر جديدة، مركز تدريبها في منطقة جمّاعين. وخلال هذه الفترة أقام علاقات مع مجموعات أخرى تشكلت في الداخل من فدائيي الضفة أو من الذين هربوا عبر الأغوار من الأردن بعد الـ 67.

وفي تلك الفترة استطاع إقامة جسر اتصال مع القيادة في الأردن حيث زودته بالسلاح والمال والتعليمات، وتركت له المبادرة في العمليات بالتنسيق مع المجموعات الأخرى.

في بيت سرّي بعيد عن عينا بوس يلتقي الجبل مع الشيخ أحمد حسن القطناني، ويتحدثان في شؤون الشعب وأحواله فيبدو الشيخ عالماً بأسرار ما يجري، ويحكي للجبل معاناة الشعب والآلام التي وصلت حدود الانفجار. يتوجّس الجبل من هذا الانقلاب المفاجئ، لكن الشيخ المتحمس يطلعه على أسرار خاصة ويعطيه كلمة السر بينه وبين القيادة، كما يفاجئه باتصاله بالقيادة التي التقى بأحد أعضائها، ثم يخبره بأنه حمل له ولمجموعته أموالاً وأسلحة، وأن بيت الشيخ البعيد عن الضيعة يمكن اعتباره أحد المقرات السرية له حين يشعر بالخطر.

وفي تلك الليلة استفاض الشيخ القطناني بالكلام عن خديعة السلام مع عدو الدين الذي لايحفظ عهداً ولايعرف غير سلام السلاح والموت:

هؤلاء يا ولدي من زمن محمد، صلوات الله عليه وسلم، أعداء لنا. حاربونا منذ خيبر وعاي وحاصور وأريحا حتى اليوم. سلالة ولغت في الدم من زمن آخاب حتى بيغن ولا يرويها إلا الدم. أنت تعرف أنني كنت أدعو للهدوء والسلام والعقل. بعد اتصالي بالقيادة انقلب رأسي. بل قُلْ توازن عقلي. لقد قالوا لي. أنت يا شيخ أحمد رجل عارف وإليك يرجع شعبنا في أمور دينه ودنياه. وأنت تجتمع بآلاف الناس ولك تأثير غير محدود. الا ترى ماذا فعلت بنا الفئة الباغية منذ ثلاثين عاماً. يا شيخ أحمد أنت تتابع رسالة الشيخ القسّام ورسالة أجدادك القطنانيين العلماء الذين لم يخشوا في الحق لومة لائم. هذا شعبنا يقوم فلماذا لاتكون أحد أعمدته وتأخذ بيده في الشده فيحسب لك ذلك يوم القيامة. لاتخف من انكشاف أمرك

فهناك من يحميك ويغطي عليك. رسالتك الدينية سترك فتظاهرْ بما كنت عليه في الماضي وفي السرّ ساعدْ رجالنا بما تستطيع. قلت: أعطوني فسحة للتفكير. ذهبت إلى الفندق وطوال الليل وأنا أفكر بما جرى. واجهت ضميري وتحاسبنا. وازنت بين خسائري الشخصية ومكاسب شعبي. رجحت موازين الشعب المطعون المشرّد فقررت أن أفتدي بلادي بإمكانياتي المتواضعة وأنا أردد: مرة واحدة تعيش يارجل فإما كريماً أو نذلاً والخيار بينهما أمر لابد منه. لقد انتهى زمن الحياد.

في اليوم الثاني وافقت. أعطوني اسمك الحركي وكلمة السر، كما زودوني ببعض الأموال والأسلحة المتواضعة. أنا الآن واحد منكم وحياتي نذرتها لفلسطين.

حين خرج الجبل من مقابلة الشيخ كان رأسه يدوي ويتماوج بين موقف الرجل في بيت المختار وموقفه الآن. في بيت المختار قبل أشهر كان الشيخ يهدد ويتوعد ويحذّر من مجابهة العدو، والآن هوذا يتغير فجأة وينتقل من السلام والحياد إلى الحرب. كيف حدث ذلك؟

وفكّر الجبل، وهو في طريقه إلى رفيقيه اللذين كمنا قريباً من البيت المنفرد، بأن الثورة المسلحة هي معجزة الشعب، وأنها قادرة على نقل الجبال من أماكنها. إن كسب رجل دين في موقع ومكانة الشيخ القطناني كجسر اتصال مع القيادة، عنصر تمويه لايخطر ببال إسرائيل الشك فيه.

كان مغتبطاً عندما وصل الكمين الذي وضعه لحمايته. نادى الجبل مرتين فنهض الطيراوي وأبو عيطة من وراء صخرة واتجهوا نحو الجبال.

في المساء نفسه عقدت المجموعة اجتماعاً بعد العشاء، تحدث فيه قائد المجموعة عن لقائه بالشيخ القطناني وموضوع الأموال والأسلحه المرسله من القيادة.

بعد شرح تفاصيل اللقاء الذي أزال أي التباس أوشك حول الموقف الجديد للشيخ انطلاقاً من الوقائع التي سردها، تقرر أن يكون الاتصال معه فردياً، وأن يكون بيته وكراً احتياطياً في أوقات الخطر والمطاردة، وأن يركز الشيخ في خطبة الجمعة ولقاءاته الظاهرية بالشعب على الجهاد والشهادة ومواقف الرسول والصحابة في الأيام الأولى للدعوة، وعلى المعاني الإنسانية للإسلام الذي جاء للناس كافة دونما تمييز بين العرب والأعاجم.

المعركة

معركة جمّاعين كانت المفاجأة التي صعقتنا.

خلال استراحة التدريب حدثت المفاجأة تحت الضحى. كنت أداوي، تحت شجرة زيتون، أحد الفدائيين الملسوع بحشرة الدَّلم الناقلة للحمى. منطقة التدريب تقع بين كروم الزيتون. جوارنا مجموعات أخرى تتدرب على الرمي. قائد إحدى المجموعات كان ذاهباً إلى مستودع المتفجرات. الوقت صيف والساعة تشير إلى الساعة العاشرة والنصف. مستودع الذخيرة كان في أسفل الوادي المغطى بأغصان الزيتون الكثيفة. قائد المجموعة الذي هبط السفح راكضاً رأى نفسه بغتة في مواجهة دورية استطلاع اسرائيلية كانت تستريح تحت أشجار الزيتون. هو انصعق من المفاجأة وهُمْ أيضاً. لا هو أطلق النار ولا هُمْ. لقد بُوغتوا. قبل أن يستردوا مفاجأتهم وثب من بينهم وهرب صاعداً بين كروم الزيتون.

بعد دقائق بدأ إطلاق النار بشكل عشوائي. كان رأيي ألّا نرد على النار وأن ننسحب من منطقة الاشتباك. المعركة غير متكافئة ولاينبغي كشف مواقعنا. الدورية الثانية ردت على الإسرائيليين، وفي غمرة الحماسة ردّت مجموعتنا واشتعل الوادي.

كانت الدورية الإسرائيلية تتجاوز الـ 100 عنصر، ومجموعتنا اثنا عشر فدائياً بينما المجموعة الثانية لاتتجاوز العشرة.

بدأ الرمي بالهاونات وبعد دقائق حلّق الطيران وبدأ قصفه العنيف.

تحولت كروم جمّاعين إلى جحيم من النيران وابتدأ استشهاد أفراد مجموعتنا.

كنا محاصرين في مساحة لاتتجاوز ألف متر مربع، وكانت رمايات المدافع والطيران تطالنا في بقعة لاتحميها إلا الأعشاب والأشجار وبعض الحفر التي لجأنا إليها وراء الحجارة.

اختلطت مواقع الإسرائيليين بمواقعنا فأصابت رمايات الطيران الدورية الإسرائيلية. كنا نسمع أصوات الإسرائيليين وصرخاتهم. سقط لهم حوالي أربعين قتيلاً بينهم كولونيل جوّ قَدِم ليستطلع ويشرف على المعركة بطائرة مروحية.

إبان المعركة سجّل الحاج أبو فارع، وعمره خمس وخمسون عاماً، موقفاً أسطورياً لايُنسى.

استشهد أحد رفاقه قربه وجرح هو جرحاً بليغاً وكان مطوقاً بالإسرائيليين. زحف نحو جثة رفيقه وتناول سلاحه. كنت أراقبه من وراء صخرة أنا والطيراوي. بدأ يصرخ بالإسرائيليين رافعاً علماً أبيض إشارة الاستسلام. كان يستنجد ويطلب منهم إنقاذه لأنه جريح. تقدمت منه مجموعة حتى صارت على مسافة عشرين متراً.

فجأة وثب مندفعاً نحوهم وراح يحصدهم بطلقات الرشاش وهو يزغرد ويكبّر ويهتف باسم فلسطين. قتلوه، وبعد موته جرُّوا جثته ووضعوها فوق صخرة وأطلقوا عليها صاروخ «روكيت لانشر» فتفتت لحمه وعظمه وامتزج بالتراب والصخر.

عشرة من مجموعتنا استُشهدوا. أنا والطيراوي تسللنا ونجونا بأعجوبة. اتجهنا نحو منطقة عوريف. كانت المعركة كميناً وقعنا فيه وكان الثمن غالياً. لقد خسرنا كل ما بنيناه خلال عام وها نحن في البداية.

ولكن كيف ظهر الإسرائيليون بغتة بيننا ولم نكشفهم؟ ولماذا تصرّفنا على ذلك النحو الأخرق؟ وهل هناك اختراق خيانة في صفوفنا أم أننا كنا نعمل بعفوية بعيداً عن الحذر والسرية؟

صدمتني المعركة. انتابني شعور عميق بالذنب، وأنا أتحمل مسؤولية ما حدث. الطيراوي منكفئ وصامت وأنا مشتت بين صور المعركة وجحيمها، وبين أحاسيس الفشل والإحباط والشعور المرير بالهزيمة.

لم أنم في تلك الليلة. حتى الفجر وأنا نهب تصورات وضعتني بين الهذيان وهاجس الانتحار.

كنت أتذكر المعركة بكل تفاصيلها، وأراهم وهم يسقطون كصقور حوصرت في أوكارها من الجو والأرض. كانت أصواتهم عميقة وجارحة وهي تصطدم بالصخر وذؤابات الشجر، ثم لاتلبث أن تتلاشى في الفضاء العابق برائحة الغبار والنار.

لقد سقطوا بسرعة خاطفة وهم يطلقون آخر طلقاتهم بين الصخور والأعشاب.

كان العدو متفوقاً علينا لكن المباغتة كانت العنصر الأساسي.

الآن أتذكر بأنني لم أقد المعركة كما ينبغي. شلّتني المفاجأة، ولكن الخلل لم يكن هنا. لابد أنني تصرفت فيما مضى بصورة فردية. كان بإمكاني أن أضرب وأنسحب وحدي وكان الأمر سهلاً وممتعاً، وعندما امتُحنت في المسؤولية الجماعية كان الفشل مريعاً. لقد ماتوا وبقيت أنا وهذا الرجل النائم الآن والذي لن يغفر لي. ولكنهم لم يستجيبوا لأوامر الانسحاب. أخذتهم حماسة الدفاع عن رفاقهم الآخرين فكشفوا مواقعهم. لكن هذا لايبدل من الأمر شيئاً. هُمْ هناك بين التلال ممددون تحت هذا الليل وفي الصباح ستشرق الشمس وتدخل أشعتها أجسادهم الممزقة فتتفسخ، وفي الأيام التالية ستنوشهم الذئاب وضباع الجبل والحدآت السود، وأنا مازلت حياً في هذه المغارة

انبلج الفجر وأشرقت الشمس. استيقظ الطيراوي. رآني مستنداً إلى جدار الكهف وعيناي مفتوحتان. قال: واضح أنك لم تنم.

خرجنا إلى بوابة الكهف. كانت الشمس تتلألأ فوق ندى أوراق العشب وشجر البطم والسنديان. فتحنا علبة سردين تناولناها مع رغيف خبز ودخنّا بصمت.

كسر الطيراوي الصمت: لابد أننا أخطأنا. وقلت: خطأ فادحاً.

نبدو الآن تحت هذه السماء الصافية كناجيين من زورق انحطم في عرض البحر.

بدا الرجل حزيناً وضعيفاً ومخذولاً. وكانت موجات التأنيب قد لامست بعنف شواطئها ثم انحسرت.

قلت وأنا أحشو الجراح بالأعشاب: ومع ذلك لابد من إعادة البناء من جديد يا طيراوي. ألم ترو لك جدتك قصة النملة وحبة القمح والمرتفع؟ نحن الآن كالنملة التي تعود إلى السفح لتلتقط الحبة المنزلقة منها وترجع بهاإلى جُحرها في القمة.

بالتأكيد كنت أولِّد في تلك اللحظة تفاؤلاً غامضاً، بدا لي أخرق في هذه الحالة التعيسة التي نحن فيها. انخذال الطيراوي وشعوري الداخلي المهزوم، وهذا النكوص الشبيه بالموت، كلها أعطتني قوة وهمية مضادة للفناء.

- لا أمل. يبدو أنهم أقوى منا.

- ليسوا أقوى إنما...

كان في رأسي شيء آخر لو قيل في هذه اللحظة الخاسرة لبدا مضحكاً واستعراضياً وخالياً من معناه. أحجمت عن الإفصاح عنه أمام الرجل الهشّ والمكسور.

قلت وأنا أمسك صخرة تحت متناول كفي:

ألم تشاهد ماذا فعل أبو فارع؟ أبو فارع هو هذا الصخر الذي لايفتته إلا اللانشر. هذا ما ينبغي أن نكونه.

وسألته: هل أنت يائس يا طيراوي؟

وقال: لست يائساً. ولكن أتساءل ماذا يفعل الكلاشن أمام الطيران والمدفعية؟ ألم تر كيف أحرقوا الشجر والصخر والتراب. أميركا وراءهم بكل قوتها وسطوتها ونحن ليس وراءنا أحد. فكيف تقاوم العين مخرزاً!

كان الآن حزيناً ومنقبضاً. تذكر رفاقه الشهداء الذي قضوا بين كروم جمّاعين. بعد لحظة انكفأ فوق حجر وانخرط في بكاء مرير: لقد قتلوهم. قتلوهم أمام عينيك وأنت القائد ولم تستطع أن تفعل شيئاً. دمهم في رقبتك. لماذا لم تنقذهم. لماذا لم تنقذهم من الموت؟ إنني أكره الحرب وأكرهك ولا أريد أن أموت.

كان الرجل حقيقياً في انهياره. في الليل عبرتني هذه الحالة وهجست بالانتحار. أن أطلق على رأسي طلقة وبذلك أكفّر عن خطئي القاتل. أخذت رأسه إلى صدري ورحت أهدئه وأمسح عبراته.

فوقنا راحت الطيور تعبر الفضاء وهي تزقزق. وانتشرت في الجو رائحة زهور البراري. ومن الأرض خرجت أغاني الزيزان والأصداء العذبة للطبيعة. كانت الريح رطبة والفضاء الرحب ينفتح بأضواء والتماعات تمتد فوق الجبال والغابات، ناشرة أريجاً ودفقاً للحياة في جذور الشجر والحشرات والتراب والفضاء.

مازالت الحياة تجري والشمس تسطع وآلاف البشر من الشعب مازال حياً.

قلت: انهض يا طيراوي انهض. انظر إلى الكون الحي. أنا مثلك حزين لاستشهادهم يا عزيزي. الإنسان ليس حجراً لكن أبو فارع أعطاني درساً سوف لن أنساه ما دمت حياً. نحن أمام اختيارين: العبودية أو الموت. ربما كان لكل منا طريقه ولا أحد يرغم الآخر على اختيار مصيره.

تعانقنا بحرارة وافترقنا.

الأمواج

متى نمت ومتى استيقظت وكيف وقعت على هذا النحو البشع! بصيص كاليراعة يعمل في رأسي. موجات. موجات كتيار كهربائي أو أشعة قادمة من وراء العالم تجتاح ذهني. الذاكرة لاتعمل. بصعوبة أرى وبصعوبة أكثر أدرك مايجري حولي وأين أنا. بين حين وآخر أتلقى صفعات عنيفة على وجهي ورأسي وأسمع كلمة: اعترفْ.

لابد أن وجهي وحده سليم ومع ذلك فدماغي لايعمل كما ينبغي. أسمع أصواتاً وأرى أشباحاً تمرّ على شاشة الربع المضاء من زوايا عقلي.

موجة.

مشفى يشبه مشفى حيفا ولكنني لاأرى خالي الجريح. تأتيني أمي على بساط غيمة بيضاء وتعانقني. تقول: اشتقت لك ياحبيبي. تبدو أمي كملاك. أطوّقها. جسدها هش لكنه ناعم كريش الحمام. أشكو لها عطشي وأنهم لايسقونني فتعطيني ثديها الأبيض. يسقسق حليبها في جوفي الحارّ قطرات دافئة لاتروي ظمئي.

موجة.

أطياف. مرة تشبه الطيور ومرة تشبه الزواحف. أنا على شط نهر معتكر يجري بسرعة. على سطحه طحالب وأخشاب وطيور

ميتة. أحاول عبور النهر وأنا خائف. يعبر النهر شبح ملفع بعباءة وعمامة بيضاء وذقن سوداء طويلة تلامس الأرض. أتوهمه الشيخ القطناني وقد حضر لإنقاذي من مجرى التيار القوي. يحملني الشيخ على محفة أرجوانية ويعبر بي وسط الماء. قبل أن أصل إلى الضفة الأخرى يسلمني الشيخ لأناس غرباء لاأعرفهم. رجال في ثياب سود عليها بقع حمراء. أنادي أمي كي تأتي لأنني في ضيق. أمي لاتجيب. أصعد فوق تلال من الضباب أو الغبار وفجأة يُلقى بي من ارتفاعات شاهقة. أشباح كثيرة تشبه الحدآت تحوّم فوقي. أسأل أين خالي وأين رجال الدفاع وأين أبو فارع؟

موجة.

عطشان. جوفي يحترق. أطلب ماء. يقترب مني رجل في لباس بدوي. يضحك ثم يبصق على وجهي. لعابه يسيل على رقبتي. يقول: يا ابن العاهرة....

تحملني الأمواج وترفعني فأرى حقول قمح وشقائق نعمان وحمائم بيضاء وغابات، ثم أرى أطفالاً في ثياب تسير عليها أفاع، يلعبون في مياه ضحلة عكرة ومليئة بالديدان. يأتيني الشيخ بصرّة تشبه قنبلة ويأمرني بقذفها إلى مسافة بعيدة. أقذفها فلا تنفجر. يقهقه الرجل المسربل بالأبيض والأسود ثم يصرخ بالسماء. أسمع رعداً ثم مطراً ولا ألبث أن أرى جسدي يغوص في الوحل.

موجة.

لابد أنني واقع تحت تأثير مخدر لايسمح لي بالنهوض، كما لايسمح لي بالارتواء من الماء. الأطياف تأتي وتروح وأنا لا أميزها ولا أفهم ماذا تفعل. إنها تعبر بسرعة العواصف والخيول الراكضة. أم تراني تناولت كثيراً من الخمر شلّ حركتي وأضاع صوابي؟ ولكن أي نوع من الخمر هذا الذي يدمر الحواس ويعمي ويصيب بهذا العطش الشديد: ماء. ماء. يا إلهي. رأسي في ضخامة جبل. بشر عمالقة يركضون على الجدران. ألوان. ألوان تشبه الشفق الذي كنت أراه من أعالي الكرمل.

هاهو خالي الطويل والجميل يتأبط أبو فارع ويعانقانني وهما يبكيان. أشرب من دمعهما الحار فيزداد عطشي. أقول لاتتركاني وحدي خذاني معكما إلى الأنهار والبحيرات وينابيع الكرمل فأنا أحتاج المياه. أميز صوتاً يقول:

لاتسقوه. إذا شرب مات.

موجة.

أعتقد أنهم يحاولون إطعامي. أرفض الطعام لكنهم يرغمونني. تمتد يد وتفتح فمي بقوة. أحاول أن أحتجَ طالباً أن يسقوني. ولكن الكلمات تستعصي. كنت أريد أنْ أسأل بدل الطعام عن سبب سقوطي في الوحل وعن الرعد الذي هبط علي والصواعق والأمطار التي اجتاحتني ولماذا كان الشيخ القطناني يضحك بصوت مجلجل كالرعد وكيف دخلت صومعته وهو يصلي ثم لماذا ترك الصلاة وناولني صرّة من الخرق والقش وقال لي هذه لعبتك يا ولدي. إنها تصلح للأولاد الذين لم يبلغوا سن الرشد. ثم لماذا كنت نائماً على سرير من حجر ثم انتقلت إلى سرير من طين وكيف تناولت ذراعي التي قُطعت ورميت بها في وجه الذي كان يصلي وخدعني ولماذا لايعيدون لي تلك الذراع التي سقطت مني في الغفلة لأحولها إلى صاروخ لانشر أدافع به عن الحاج أبو فارغ.

موجة.

مضى زمن طويل بين الغفوة والصحو. بين أبواب الموت والحياة وأنا مازلت أترنح بينهما. القسم الأسفل من الجسد كله، والقسم الأكبر من الوعي في حالة موت. أغيب وأصحو وفي كلتا الحالتين ماأزال نهب العذاب والأطياف. أشعر كأنني موثق بجبال من الحجارة والغيوم والقطن في الطبقات السفلى من أرض تارة تبدو لي كالجحيم وتارة كالجنة.

تحت موجة هذا المساء حضرت أمي وأبي وأخوتي. قالوا: هل أنت جاهز يا نافذ؟ نحن ذاهبون إلى بيتنا في حيفا. لقد انتهى موسم

الحصاد وقطف الزيتون والقطار واقف في المحطة بلا سائق ينتظر والدك.

نمشي في الهواء بسرعة الريح. على باب بيت يشبه بيتنا القديم تستقبلنا امرأة غريبة شقراء بيدها مغزل يدور وينسج حريراً أصفر. شكل المغزل يبدو لي كشكل قنبلة مدفع. أقول: ماما. ماما. هذا ليس بيتنا. هذا بيت الشيخ القطناني وهذه زوجته. المرأة العجوز الغريبة تغضب وتنهرنا لنخرج من بيتها. اسأل عن ألعابي ثم أصعد غرفتي لأرى ألعابي القديمة. أراها في زاوية صغيرة وقد غطاها نسيج عنكبوت. أمدّ أصابعي لأمسك مقود دراجتي الخشبية فيهجم علي عنكبوت أسود في حجم جرذ ضخم. أصرخ. تناديني أمي: انزل. انزل يا نافذ. البيت مسكون. دع ألعابك. بسرعة. بسرعة. نحن ذاهبون إلى المرفأ. الزورق على أهبة الرحيل والناس سبقونا. وأنا أستعد للنزول أقول ولكن أنا عطشان يا ماما. ألا يوجد ماء. تقول العجوز الشقراء الغريبة: لا. لا. لاماء هنا. أنزل فيتبعني العنكبوت على الدرج. ألتفت إليه فأرى أذرعه الطويلة وعينه الحمراء. تشير العجوز الغريبة إلينا فتتسارع آلاف العناكب خارجة من الجدران والزوايا وتهرول وراء العنكبوت الكبير متجهة نحونا. نهرع خارجين فزعين من البيت الغريب.

لاأدري كيف اختفى أهلي فجأة وتركوني وحيداً أواجه البحر.

ملحق

1

في شتاء عام 1970 عقب الاشتباك الذي وقع بين نافذ علّان «الجبل» وبين قوات تقدر بفصيلة من جيش الدفاع الإسرائيلي في بيت الشيخ القطناني، بناء على إخبارية واتفاق بين المخابرات الإسرائيلية والشيخ أحمد حسن القطناني، العميل الذي اشترته ودربته لاصطياد الفدائيين وملاحقة نافذ علّان، وبعد تسليم الشيخ المذكور قنبلة غير قابلة للانفجار يعطيها للجبل قبل الاشتباك بوقت قصير، نشرت الصحف الإسرائيلية خبر المعركة على النحو التالي:

جرى اليوم اشتباك بين مجموعة من المخربين وبين قوات جيش الدفاع في ضواحي قرية عينا بوس، قتل فيها عدد من المخربين وجرح فيها المخرب نافذ علّان الشهير بالجبل بعد أن أصيب بطلقات غزيرة وبُترت ذراعه. لقد ارتكب المخرب عدة جرائم هو ومجموعته ضد المواطنين الآمنين والمراكز الإدارية في نابلس، أبرزها قيادة هجوم على مقر الحاكم العسكري في نابلس، واشتباك جمّاعين. كما نصب عدة كمائن لقواتنا وزرع عبوات ناسفة وأقدم على محاولات اغتيال لمواطنين من العرب الشرفاء المتعاونين وقوات جيش الدفاع لملاحقة المجرمين واستئصال شأفتهم. كما

أشارت الصحف إلى أن المخرّب يتلقى العناية الصحية في مشفى نابلس وبعد شفائه سيمثل أمام المحكمة العسكرية.

2

بعد عام من الاشتباك وجدت جثة الشيخ أحمد حسن القطناني على عتبة داره وفي ظهره سكين غاص نصلها حتى القلب، وقرب الجثة رسالة مختصرة: لن يتاح لك بعد اليوم أن تخدع الثوار بقنابل إسرائيلية لاتنفجر.

شعبنا يمهل لكنه لايهمل.